# الفصل السابع

## العلوم والآداب والمؤسسات العلمية

- البيئة الفكرية.
- العلوم.
- الآداب.
- المؤسسات العلمية.

## البيئة الفكرية

أتاح الإسلام المناخ الفكرى الحر الذى مكّن العلماء وأصحاب الفكر من الإسهام فى إثراء الحضارة الإسلامية فى كافة مجالاتها وقد قدم المسلمون عربهم وعجمهم ما بهر العـالم من إنتاج فكرى كان نواة للعلوم الحديثة، كما كان مقدمة لنهضة أدبية كبرى تشـهد بها آدابهم وما فتحوه للعالم من مجالات مبتكرة اعتمد عليها العالم الحديث بشكل مباشر، ففنون العرب فى اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب تظهر آثارها بشكل واضح وملموس فيما لحقها من تراث إنسانى.

ومما يجب التنويه إليه أن العرب وغير العرب كتبوا فكرهم وصاغوه باللغة العربية مما يبين دور هذه اللغة فى التأثير فيهم، ويوضح اهتمامهم بها باعتبارها الرباط الوثيق الذى جمع المسلمين، ولا غرابة فى ذلك فهى لغة القرآن الكريم.

وقد كرّم الله الإنسـان، ورفع منزلة العلماء، وفتح أمامهم الآفاق للاسـتزادة من العلم والنظر فيه تحقيقا لاستمرارية الحياة وتجددها، فأول آيات الذكر الحكيم التى نزلت على رسول الله كانت ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، كما بين مكانة العلماء فقال.. ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ... ۝١١﴾ [المجادلـة] وفضلهـم فقـرر ﴿.... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ۝٩﴾ [الزمر]، وحثهـم علـى الاسـتزادة منـه فـى قولـه سـبحانه: ﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسـراء]، وشرح فضل العلم فى معرفة العلماء للخالق وخشيتهم له ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ۝٢٨﴾ [فاطر]، ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ... ۝١١٤﴾ [الأنعـام]، ﴿... وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ... ۝٧﴾ [آل عمران]، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ... ۝٤٩﴾[العنكبـوت]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ... ۝٤٣﴾ [العنكبوت].

وتوضـح أقوال وأحاديث النبى ﷺ أهمية العلم وفضل العلماء، فعنه ﷺ أنه قال:

«يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء»، وقال ﷺ : «الموت قبيلة أيسر من موت عالم». وقوله : «غزوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة».

واهتم خلفاء المسلمين وأئمتهم بالعلم والعلماء، وكانوا يغدقون عليهم بسخاء، ويوفرون لهم كل الإمكانات للدراسة والكتابة والاستقصاء، وتذكر المصادر اهتمام الخلفاء بعقد الجلسات العلمية وحضورها، فكان قصر معاوية بن أبى سفيان يشهد هذه الجلسات، وهى لاشك مأخوذة من حلقات الدرس التى كانت تعقد فى المسجد الجامع فى المدينة المنورة.

ويشهد العصر العباسى تنوع هذه الجلسات مما يتناسب مع الرخاء والحضارة اللذين ميزا هذا العصر، فكانت الجلسات تتنوع إلى جلسات للأدب والشعر والموسيقى والعلوم، وخير شاهد على هذا ما كان يحدث فى عصر الرشيد وفى عصر المأمون، وما كانت تشهده بغداد من حياة علمية غنية زاهرة.

وكذلك كانت الحياة الثقافية والعلمية مزدهرة فى الأقاليم فاهتم الطولونيون والإخشيديون والحمدانيون بالعلم والثقافة والآداب، وشجعوا العلماء وزينوا مجالسهم بالنابهين والمشهورين منهم، وكانت المحاضرات تلقى فى قصور الأمراء ومنازل العلماء، وشهد البلاط الإخشيدى دروسا وبحوثا كانت تعد وتلقى كل أمسية.

وأهتم الفاطميون بالعلوم والعلماء. فكانوا يعقدون مجالسهم العلمية، وكان أساتذة دار الحكمة يسهمون فيها وكانوا ينقسمون إلى مجموعات متخصصة، تعكف كل مجموعة على دراسة موضوع خاص أو قضية بعينها، وكان العلماء يتنافسون بعلمهم كما كانت تعقد بينهم المناظرات وتأتى هبات الملوك والخلفاء لهم على قدر تفوقهم ومقدرتهم العلمية فى تلك المناظرات.

وعمرت المساجد الإسلامية بجلسات العلم وحلقات الدرس ورتب الخلفاء الرواتب والأرزاق للعلماء وطلاب العلم، وازدهرت جامعات الإسلام فى مساجده الجامعة، فكان جامع المدينة مركزا من أهم مراكز الإشعاع الفكرى والثقافى، وعلى غراره قامت مساجد المسلمين فى حواضرهم، فكان جامع عمرو، وكان المسجد الأموى، ومساجد العراق، وما أقيم فى المشرق الإسلامى والشمال الإفريقى والأندلس كلها منابر تنشر الإسلام والعلوم الإسلامية وتعلم المسلمين وتؤصل الثقافة الإسلامية وترسى جذورها.

وكانت العلوم بشتى فروعها تدرس فى هذه الجامعات، وقد برز علماء وأساتذة علموا الدنيا، فيذكر السيوطى: أن دروسا مختلفة رتبت فى المسجد الطولونى تضمنت الفقه على المذاهب الأربعة، والقراءات والطب والميقات. وروى عبد اللطيف البغدادى الذى زار القاهرة: أن درسا فى الطب كان يلقى فى الجامع الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم.

## العلوم

عرف المسلمون المنهج العلمى فى البحث وطبقوه على العلوم التجريبية التى ارتبطت بهم، وعرفها العالم كله عن طريقهم. ولقد استطاع علماء المسلمين أن يؤكدوا مكانتهم العلمية، وأن يخطوا بالعلم الإسلامى خطوات واسعة فى طريق التأصيل والتقدم بدرجة جعلت منهم روادًا سباقين فى مجالات شتى من مجالات العلوم. وقد استطاع أيضًا مفكرو الإسلام أن يجعلوا من اللغة العربية لغة العلم التى تسيدت على اللغات كلها، وأصبحت وسيلة التعبير الفكرى فى العلوم والآداب.

ففى القرن السادس الهجرى، كانت اللغة العربية هى لغة العلم، كتب بها العلماء بحوثهم وكتبهم، وحققت فى ذلك الوقت مكانة عالمية شهد بها العالم.

كما وضع المسلمون الأسس الأولى لكثير من العلوم، ونحن هنا لاننكر دور التراث القديم باعتباره لبنة أساسية للفكر الإنسانى، ولكن الدور الذى قام به المسلمون فى تطوير هذا التراث وفى تعقيله وترشيده دور أساسى أيضًا بالإضافة إلى ما ابتكروه من نظريات وما اكتشفوه من ظواهر وما أثبتوه من شواهد وملاحظات، وما حققوه بالتجربة. كل هذا رصيد علمى نفيس يدرك العالم الآن مدى قيمته بالنسبة لتطور الإنسان.

وإذا كانت المعرفة عامة، وإذا كانت العلوم عامة شاملة فإن المسلمين عرفوا العلوم بمعناها العام الشامل، كما أنهم وضعوا التخصصات وقعّدوا لها وبرعوا فيها، فمن علماء المسلمين الفقيه المتكلم الطبيب، ومنهم الكيميائى الرياضى الفلكى الجيولوجى، ومنهم من برع فى واحدة فقط من هذه التخصصات.

وأقطاب العلم المسلمون قد وضعوا أسس مناهجهم العلمية وخلاصة تجاربهم الطويلة، ومن هؤلاء من تفوقت أعمالهم وما سجلوه عنها مما تفخر به أوروبا من علم ونظريات، بل إنها تعترف اليوم بأن الأسس تعود بجذورها إلى ما قدمه علماء المسلمين.

إن ابن سينا وابن البيطار وابن سيده والخوارزمى وابن الهيثم وابن النفيس والرازى وجابر بن حيان، والقزوينى، والبيرونى، والدميرى، رسموا طريق العلم وحددوا معالمه، وتركوا آثارهم واضحة تنطق بمدى الجهد الفكرى الذى بذلوه، وتقدم للإنسانية تراثا أصيلا يضىء لها طريق العلم والمعرفة، ويعين على مشقة اجتياز هذه الطريق.

ومن المعروف أن علماء المسلمين وضعوا أسس الطب والكيمياء والرياضة بفروعها المختلفة، والفلك والتعدين والجيولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان.

## الطب والأطباء:

أفاد المسلمون من التجارب العلمية فى مجال الطب، فعرفوا الطب القديم الذى عرفته الشعوب القديمة وتوارثته الأجيال، إلا إنهم جعلوا من الطب علما له أصول وقواعد.

وكان العرب قد نقلوا كثيرا من طب الفرس وطب الهنود، وظهر فيهم أطباء كانوا يعتمدون على وسائل بدائية فى تطبيب المرضى، فكانوا يعتمدون على الكهانة، بالإضافة إلى معرفتهم باستخدام بعض النباتات الطبية التى دلتهم التجربة على فعاليتها فى شفاء بعض الأمراض.

وكان من أشهر أطباء العرب قبل الإسلام ابن خزيم والحارث بن كلدة، وشهد عصر النبوة واحدا من أشهر الجراحين العرب هو ابن أبى رمثة التميمى.

كما عرف المسلمون أيضا الطب النبوى وهو عبارة عن أحاديث النبى ﷺ التى تتضمن علاج بعض العلل والأمراض حفظها لنا كتاب الحديث ومن بينهم الإمام البخارى.

والطب النبوى يتحدث عن الوقاية من الأمراض، ويقدم قواعد وأصولا وإن بدت بسيطة إلا إنها فى الواقع تمثل بداية أو نواة لما تعرفه الدول الحديثة من نظم للوقاية والعلاج، فمن المعروف أن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا منها»، وهذا يمثل نظم العزل والحجر الصحى الحديث ضمانا لعدم تفشى الأمراض وانتشار العدوى.

والطب النبوى يمثل مرحلة من المراحل التى مرّ بها الطب عند المسلمين، وفى العصر الأموى اهتم خلفاء بنى أمية بالأطباء وكان من أشهر أطباء العصر الأموى طبب

الطبيب ابن آثال معاوية بن أبى سفيان وكان طبيبا حاذقا عارفا بتركيب الأدوية. ومنهم ابن ماسرجويه الطبيب البصرى، وعبدالملك بن أبجر الكنانى وغيرهم. ومن الجدير بالإشارة أن طبيبة تدعى زينب طبيبة بنى أود اشتهرت بالطب والعلاج ومداواة آلام العين والجراحة، وذلك فى أواخر العصر الأموى[1].

وأول بيمارستان أقيم عند المسلمين كان الذى أقامه الوليد بن عبد الملك فى دمشق، ويذكر الطبرى: أن الوليد بن عبد الملك حبس المجذومين ومنعهم أن يخرجوا على الناس، وأجرى عليهم أرزاقا[2].

كذلك اهتم العباسيون بالطب وظهرت فى العصر العباسى عائلة بختيشوع المكونة من بختيشوع الأب، وجبريل الابن ثم بختيشوع بن جبريل الذى ظهرت مكانته العلمية فى البلاط العباسى، ومن أشهر آثار بختيشوع الأب كتاب التذكرة فى الطب.

ومن الأطباء الذين اشتهروا فى العصر العباسى قسطا بن لوقا البعلبكى المترجم الذى كتب ما ينيف على الثلاثين كتابًا، وعلى بن سهل الطبرى صاحب كتاب «فردوس الحكمة وحفظ الصحة ومنافع الأطعمة والأشربة».

ويعتبر أبو بكر بن زكريا الرازى شيخ أطباء المسلمين فقد كان عالمًا موسوعيًا زادت مؤلفاته على المائتين، ضاعت معظمها ولم يبق منها سوى القليل، ومن أشهر مؤلفاته الحاوى فى الطب، والأعضاء والأدوية والأغذية. ومن بين ما ذكر من الأمراض، أمراض الراس والسكتة والمناخوليا والرعشة المبتدية مع المرض وأوضاع العصب واسترخائه، ومن الثابت أن أبا بكر الرازى قد مارس التشريح وعرّف أجزاء جسم الإنسان وتحدث فى كتابه عن طب الأسنان وطب العيون والأنف والأذن[3].

---

(١) عبدالحليم منتصر: تاريخ العلم ودور علماء المسلمين فى تقدمه ص١١٦. وقد أفدت أيما إفادة من هذا الكتاب القيم فى كتابة هذا الفصل، وانظر ابن قيم الجوزية: الطب النبوى. تحقيق إبراهيم قلعجى . القاهرة ١٩٧٨.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٦ ص ١٣٧.

(٣) أبو بكر الرازى: الحاوى. حيدر أباد الدكن . ١٩٥٥.

والرازى هو مبتكر خيوط الجراحة استخلصها من أمعاء الحيوان لخياطة الأنسجة وهو الذى قال بوراثة المرض، وقد استطاع الرازى أن يميز بين الجدرى والحصبة.

وأبو بكر الرازى قد أعد نفسه إعدادا حسنا، ودرس الطب اليونانى دراسة وافية، وهو يفرق بين طبيب القياس وطبيب التجربة، ولكنه يقول: إن المعنى بأمر الطب يجب أن يجمع بين رجلين أحدهما فاضل فى الفن العلمى من الطب والثانى كثير الدربة والتجربة.

جمع الرازى بين الاطلاع والخبرة وتولى إدارة البيمارستان، وتعكس مواهبه قدرة أستاذ مجرب ومؤلف ممارس، وقد كان الرازى أستاذًا بارعًا له نظام مستقر واضح فى تعليم الطب النظرى والطب الإكلينيكى.

واشتهر فى العصر العباسى أيضًا ابن سينا وعبد اللطيف البغدادى وابن النفيس وابن ميمون، ومن الملاحظ أن الأطباء الذين برزوا فى العصر العباسى كان منهم المسلمون والمسيحيون واليهود.

أما ابن سينا فهو المعلم الثالث للإنسانية، كان الأول أرسطو والثانى الفارابى، وابن سينا ولد فى بخارى، وتعلم على أيدى أساتذتها، وقد مكن لنفسه حتى اكتسب شهرة عظيمة، وكان يعالج مرضاه بالمجان.

وإن كانت شهرة ابن سينا الطبيب قد ذاعت فى الآفاق فإنه إلى جانب علمه فى الطب كان موسوعيا فكتب فى الإلهيات والفلسفة والنبات والمعادن، فمن أشهر كتبه القانون فى الطب، والشفاء فى الطبيعة والحيوان والنبات، ولا غرابة فقد استطاع ابن سينا أن يحتل مكانة عظيمة فى عصره حتى لقب بالشيخ الرئيس.

وكتب ابن سينا فى الطب كانت اصلاً للطب الأوروبى فقد ترجمت منذ فترة مبكرة إلى اللغة اللاتينية كما ترجمت له كتب أخرى فى الفلسفة والإلهيات والرياضة والطبيعة والفلك.

وظل كتاب ابن سينا مصدرًا أساسيًا فى جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر. وقد أثار إعجاب علماء أوروبا، فقد أحسن ابن سينا الشيخ الرئيس تبويب كتابه القانون الذى احتوى على فصول فى علم وظائف الأعضاء، والأمراض ووصف كيفية علاجها وحدد لها الدواء.

كذلك اهتم ابن سينا بأمراض النساء فوصف بعضها وصفا دقيقا مثل حمى النفاس والعقم، وكان ابن سينا على دراية بعلم الوراثة فقال بنسبة أصل الجنين إلى الرجل دون المرأة تصحيحا لفكرة كانت خاطئة.

وأما عبداللطيف البغدادى فهو من أطباء القرن السادس الهجرى فى بغداد، درس علوم الدين ونهل من علم علماء العراق واستقر حينًا فى دمشق. وجاء عبداللطيف البغدادى إلى مصر وقام بالتدريس فى الجامع الأزهر، واتصل بعلمائه والتقى بأطباء مصر أمثال ابن يونس وابن ميمون طبيب صلاح الدين الأيوبى.

وللبغدادى مؤلفات عديدة فى مجالات متفرقة كان أهمها كتابه عن وصف مصر الذى سجل فيه مشاهدته عنها، ويذكر لقاءه بصلاح الدين فى القدس حيث رحل إليه مهنئًا بالنصر على الصليبيين.

وقد قام عبد اللطيف البغدادى بالتدريس أيضا فى الجامع الأموى فى دمشق حيث عينه صلاح الدين الأيوبى ورتبه مدرسا به. كذلك استطاع عبد اللطيف البغدادى استخدام بعض النباتات لاستخراج الأدوية منها لعلاج كثير من الأمراض.

وأما ابن النفيس فهو من أشهر أطباء المسلمين من أعلام القرن السابع الهجرى، وارتبطت شهرة ابن النفيس باكتشافه للدورة الدموية.

وقد ملأ ابن النفيس الحياة العلمية فى دمشق نشاطًا وحيوية. وزار مصر وعمل بالبيمارستان، وكان وفيًا لهذا البيمارستان فوهبه مكتبته بعد وفاته، كما وقف بيته عليه.

وأعمال ابن النفيس العلمية كثيرة منها ما كتب فى طب العيون، وما ألف فى الغذاء، وقام على اختصار كتاب القانون لابن سينا، ومما يذكر أن ابن النفيس قد حفظ كتاب القانون عن ظهر قلب.

ولابن النفيس نظرية فى العلاج تعتمد على تنظيم الغذاء، ومما أدى إلى سوء العلاقة بينه وبين الصيادلة إقباله على وصف الأدوية والعقاقير لمرضاه.

وقد ذكرنا من قبل أن شهرة ابن النفيس ترتبط باكتشافه للدورة الدموية الصغرى فقد عرف القلب وأجزاءه، وفاق أستاذه ابن سينا فى التشريح وعدل من نظرياته وآرائه إلا إنه لم يجهر بها.

وأمـا ابن ميمون فهو من بلاد الأندلس، جاء إلى مصر والتحق بخدمة صلاح الدين الأيوبى وقام بتدريس الطب وممارسـته ، حيث اكتسـب شـهرة عظيمة. وله كتابات متخصصة وبحوث ورسـائل فى موضوعات طبية متفرقة بالإضافة إلى أعماله الفكرية الأخرى التى أكسبته شهرة واسعة.

ومن أهم مؤلفاته فى الطب: فصول موسـى فى الطب وهو لا يزال مخطوطا، وله أيضا كتاب السموم والتحرز من الأدوية القتالة.

والتحاق ابن ميمون بخدمة الدولة الإسلامية يعكس مدى تسامح الإسلام والمسلمين فى معاملة رعايا الدولة الإسلامية من أهل الذمة دون تفرقة، بل إن بعضهم قد قربهم الخلفاء والسلاطين وأكرموهم، وينعكس ذلك فى إنتاجهم النفيس الذى تركوه للإنسانية.

ومن الظواهر الهامة فى تاريخ الطب عند المسـلمين أن ظهرت أسـر بكاملها تعمل فى هذا المجال، ومما يسـترعى الانتباه؛ ظهور ابن زهر الطبيب الأندلسـى الشهير الذى عاش فى القرن السـادس الهجرى الثانى عشر الميلادى، والذى كان أبوه طبيبا ماهـرا وخلفه ابنه وابنته، وتذكر المصادر أن ابن زهر الاين وشـقيقته كان لهما خبرة التطبيب وأمراض النساء والتوليد.

وقد التحق ابن زهر بخدمة الملك أبى محمد بن عبد المؤمن وألف له كتابًا فى الطب سماه «الترياق السبعينى».

وذكـر طريقـة علاج بعض الأمراض، وهاجم اسـتخدام المسـهلات كعلاج لبعض الأمراض، بل رفض اسـتخدامها كعلاج أصلا وأوصى بضرورة تعاطى ما يقوى المعدة مع المسهلات إذا اقتضى الأمر ذلك.

وكان الطب عند المسـلمين فى القرون الوسـطى متقدمًا، بـل إن تقدم الطب بهر الأوربيين وخاصة الذين استقروا فى أراضى الدولة الإسلامية إبان الحروب الصليبية. كما شـهدت أوروبا بأن طب المسـلمين كان نواة للتقدم الطبى فى أوروبا النهضة ومن ثم فى أوروبا الحديثة.

وتجب الإشـارة إلى أن العلماء المسـلمين قد قاموا بدور هام فى حفظ ونقل التراث الطبى القديم، وعن طريق ترجماتهم عرفته أوروبا، ثم أضاف المسلمون تجاربهم العظيمة وملاحظتهم، وعصارة تفكيرهم الذى أضاء الطريق أمام علماء العصور الحديثة.

## الكيمياء والصيدلة :

ارتبط اهتمام علماء المسلمين بعلم الكيمياء باهتمامهم بعلوم الحياة وخاصة علم الطب. وقد تناول كثيرون منهم جوانب خاصة بالكيمياء والصيدلة عندما كتبوا أعمالهم الطبية الكبرى، فالشيخ الرئيس الذى اهتم اهتمامًا بالغًا بالطب، خصص فصولاً فى كتابه القانون للصيدلة ووصف فى بعض فصوله النباتات الطبية واستعمالاتها فى العلاج وصناعة العقاقير. وتحدث ابن سينا عن استخلاص العقار وطريقة استخدامه فى العلاج.

ويعتبر جابر بن حيان شيخ الكيميائيين العرب، ذلك أن الكيمياء قبل جابر بن حيان لم تكن علمًا بالمعنى المفهوم، إنما كانت صناعة وخبرة تحتاج إلى مران ودربة حيث كانت تستخدم فى التعدين والتحنيط والصباغة وصناعة الزجاج وتحضير الزيوت والعطور.

وقد وضع جابر بن حيان أسسا عملية علمية لصناعة الكيمياء، ومن ثم كان واضع أسس هذا العلم؛ ,ادخل جابر بن حيان على الكيمياء استخدام اصطلاح علم الميزان، وعرف كثيرا من العمليات الكيماوية كالتبخر والترشيح والتقطير والإذابة والتبلور، واستطاع تحضير عدد من المواد الكيماوية وعرف خواصها.

وكان جابر بن حيان يؤكد على أهمية التجربة والمشاهدة وتسجيل ملاحظاته، وكان يدقق فى النتائج التى يصل إليها، ووصايا جابر بن حيان إلى تلاميذه مشهورة، وكان يطلب إليهم التدقيق والتأنى فى الاستنتاجات العلمية الناتجة عن تجاربهم.

ومؤلفات جابر بن حيان فى الكيمياء كثيرة ترجم معظمها إلى اللاتينية، وقد اعتمدت عليها أوروبا فى إنجازاتها العلمية فى هذا المضمار.

والصيدلة تابعة لعلم الطب بالضرورة، ويعتبر ابن سينا كما أشرت آنفًا من أشهر صيادلة المسلمين، فقد استطاع أن يركّب الأدوية المستخرجة من النباتات والحيوان أيضا.

وقد وصف ابن سينا عددًا من النباتات مما يباع جافا لدى العطارين من أخشاب أو قشور أوثمار أو أزهار مما يستخدم فى علاج بعض الأمراض.

وابـن البيطار ممن اهتموا بالأدوية فقد ذكر ماهياتهـا وحدد مضارها وإصلاح هذا الضرر، والمقدار المستعمل منها فى جرعتها أو عصارتها أو طبخها، والبديل عنها فى حالة عدم وجودها.

كذلـك كتب البيرونى كتابًا فى الصيدلـة عنوانه «كتاب الصيدلة»، كما كتب ابن الهيثم مؤلفًا فى الصيدلة يقع فى ثلاثين جزءًا.

«وتذكـرة أولى الألبـاب والجامع للعجـب العجاب» من أهم مؤلفـات العرب فى الصيدلة صنفها الأنطاكى ووضح فيها كيف يمكن حفظ الأدوية لمدة طويلة، كما وصف فيها الطريقة التى يمكن بها اسـتخراج الأدويـة والعقاقير من النباتات الطبية؛ وبين قوانين التركيب وأعمال السحق والغلى والقلى والجمع والإفراد والتركيب.

وتعد التذكرة قاموسًـا صيدليًا رتب فيـه الأنطاكى الأدوية ترتيبًا أبجديًا كما رتب الأمراض ووضح أسبابها وعلامتها وكيفية معالجتها[1].

## الرياضيات:

لعل أهم ما يذكر عند الحديث عن دور علماء المسلمين فى وضع أسس علم الرياضيات هو اسـتخدامهم لنظام الترقيم بدلا من حسـاب الجمل الذى كان سائدًا عند المصريين القدمـاء والهنود والرومـان. فمن المعروف أن الأرقـام الرومانية Roman Numbers I II III IV V VI VII VIII IX X. كانـت مسـتخدمة إلى أن اخـترع العـرب نظامهم فى الترقيم وهو : Arabic Numbers

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

أما الأرقام التى نسـتخدمها نحن الآن فهى الأرقام الهندية: ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠، وهذه الأرقام مرتبة على أساس الزوايا فرقم ١ يقوم على زاوية واحدة ورقم ٢ يتضمن زاويتين ورقم ٣ يشكل ثلاث زوايا[2].

ويرجـع الفضل فى نقـل هذه الأرقـام إلى محمد بن موسـى الخوارزمى، وهو أول مـن أوردها فى مؤلفاته عن الحسـاب. ومما تجدر الإشـارة إليه أن كتابه فى

---

(١) ابو داود الأنطاكى: تذكرة أولى الألباب، ثلاثة أجزاء، القاهرة، بدون سنة نشر

(٢) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ص ١١٦ وما بعدها.

الحساب كان أول كتاب من نوعه وقد ترجم إلى اللاتينية وظل لقرون طويلة أساسًا لعلم الحساب.

ومن أهم مميزات نظام الأرقام العربية أنه من السهولة بمكان تركيب أى عدد من هذه الأرقام مهما كان كبيرا فهى تقوم على النظام العشرى، وهو من مبتكرات المسلمين. وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب اخترعوا الصفر وكان الهنود قبلهم يدللون على مكان الصفر بفراغ يتركونه، والعرب أيضا هم أصحاب فكرة العلامة العشرية، كما أنهم عرفوا التقريب العددى.

والمسلمون هم أصحاب علم الجبر، والخوارزمى هو مؤسس هذا العلم، وهو أول من ألف فيه بطريقة منظمة، وقد اعتمدت أوروبا على كتابه الشهير المعروف باسم الجبر والمقابلة، ويعترف العلماء المحدثون بأن الخوارزمى هو واضع أسس علمى الحساب والجبر.

ويرع البيرونى أيضًا فى الرياضيات ومن أشهر كتبه الاسطرلاب وفيه وضع نظريته التى يسميها علماء الغرب قاعدة البيرونى والتى وضع فيها معادلة لحساب نصف قطر الأرض.

وكان البيرونى عقلية فذة توصل إلى حساب أطوال البلدان بالكشوفات وتصحيح الخاطئ منها، وإذا كانت أوروبا تعتز بابتكارات إسحق نيوتن الرياضية فإن الحضارة الإسلامية تفخر بأن البيونى سبق نيوتن بعدة قرون.

واهتم علماء المسلمين بالفيزياء وبرز فيهم الحسن بن الهيثم كواحد من رواد العلم إلى جانب تفوقه فى فروع أخرى من فروع العلم والمعرفة.

والحسن بن الهيثم من علماء العراق الذين نزحوا إلى مصر فى العصر الفاطمى بدعوة من الحاكم بأمر الله، وفى القاهرة قضى ابن الهيثم زمنًا فى العلم والكتابة والتدريس فى الجامع الأزهر.

وقد بلغت مؤلفات ابن الهيثم فى الطبيعة ما يربو على ثلاثين مؤلفا أو يزيد هذا بالإضافة إلى تصانيفه الأخرى.

وكان الحسن بن الهيثم دقيق الملاحظة، درس الشواهد والمظاهر المحيطة به، ويعتبر مؤسس علم الضوء، وضع نظريات سبق بها Roger Bacon . وكانت نظرياته

مبنية على ملاحظات الضوء، واتجاهاته وانكساراته وانعكاساته على الأجسام،كما درس الأجسام المضيئة، وحدد زوايا السقوط وزوايا الانكسار وزوايا الانعكاس. وقد ظلت كتابات الحسن بن الهيثم ونظرياته مرجعا أصيلا لأوروبا نهلت منه فى تقدمها العلمى ونهضتها الكبرى.

## الفلك :

عرف علماء المسلمين علم الفلك، ولهم فى مضماره صولات وجولات، فقد قاموا برصد النجوم، ووصفوا العديد من القياسات، واستطاعوا أن يربطوا بين الفلك والعلوم الرياضية التى استخدموها بدقة فى حساباتهم الفلكية.

ويرى علماء المسلمين أن علم الفلك علم رياضى بحت مبنى على الحساب والرصد. وقد وضعوا ذلك فى اعتبارهم عندما أقاموا مراصدهم وفيما ابتكروه من أجهزة وأدوات وما قدموا من جداول وأزياج فلكية.

وللفلك دور هام فى الأمور الدينية كمعرفة أوقات الصلاة حسب مواقع البلد وتحديد مواقع البلدان وحركة الشمس. ولقد قام علماء المسلمين بدراسة جهود الإغريق والرومان وخاصة علماء الإسكندرية، ومن أهم الكتب التى اعتمد عليها العلماء المسلمون كتب بطليموس السكندرى.

وقد اهتم الخلفاء المسلمون بالفلك، وقيل إنهم اهتموا بالتنجيم، وكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور يصطفى المنجمين ويصطحبهم فى رحلاته وهو الذى أمر بترجمة كتاب حركات النجوم الذى قام على ترجمته محمد بن إبراهيم الفزارى وسماه كتاب« السند هند الكبير»، وقد اختصره الخوارزمى، وعليه اعتمد عند وضع زيجه المشهور، وسمى الكتاب باسم الزيج لأنه زاوج فيه بين مذهب الهند ومذهب الفرس وبين مذهب بطليموس، كما أن المنصور أرسل إلى ملك الروم يطلب ما عنده من كتب فى الفلك كى يفيد منها علماء المسلمين.

وظهر كثير من علماء المسلمين المهتمين بالدراسات الفلكية من بينهم ثابت بن قرة البلخى، وحنين بن إسحق، والعبادى وابن يونس والخازن والطوسى وجمشيد الكاشى وغيرهم.

ومما هو جدير بالذكر أن الحسن بن الهيثم والفرغانى والبتانى لهم آراء صحيحة فى تقدير محيط الأرض، وقالوا باستدارتها، وحسبوا طول السنة الشمسية، وحققوا مواقع كثيرة للنجوم، ورصدوا الاعتدالين وكتبوا عن البقع الشمسية.

ويقول ابن طفيل بوحدة القوانين والأنظمة الكونية وشمولها فيما يسيطر على النبات والماء والهواء والجماد والحيوان وعلى سائر الموجودات، وأن العالم بجملته شيء واحد يتحرك فى دائرة من القوانين والأنظمة.

ولعلماء المسلمين أثر واضح فى الفكر الأوروبى، ذلك أن كتاب الفرغانى فى الفلك المسمى أصول الفلك كان يدرس فى جامعة بولونيا فى إيطاليا. كذلك من المعترف به للعالم البتانى المتوفى عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م دوره فى تصحيح بعض المعلومات الواردة فى المجسطى لبطليموس. وقد وازن البتانى بين التقاويم العربية والفارسية والرومية والمصرية القديمة، وتحدث عن منازل القمر التى ذكرت فى القرآن الكريم، وأرصاد النجوم، وقد ترجمت كتبه إلى اللغة اللاتينية. وتوجد أصول مخطوطاتها فى المكتبة الوطنية بباريس[1].

واهتم الكندى أيضا بعلوم الفلك، ويعده الغرب الأوروبى واحدا من أعلام علم الفلك المسلمين، وللكندى مؤلفات فى علم الفلك، ومن شواهده وملاحظاته أنه لاحظ الظواهر الطبيعية الناشئة عن اختلاف أوضاع النجوم وخاصة الشمس والقمر وربط بين ذلك وبين نشأة الحياة على الأرض.

## النبات والحيوان :

اهتم العلماء المسلمون بعلم النبات، وكان الدينورى شيخ علماء النبات المسلمين، وعنه أخذ المسلمون معلوماتهم عن النبات.

وكتاب الدينورى عن النبات يعد الدليل المفصل الحاوى على أسماء النبات وتعريفها ومعرفة العرب بها، ومتى ينبت وأين ينبت وما هو دائم الخضرة إلى غير ذلك.

---

(١) سيديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر ص ٣٤١.

وينفرد الدينورى عن غيره من العشابين ومن اهتموا بعلم النبات بأنه أوّلى النبات فقط عنايته، ولم يربط بينه وبين الصيدلة أو العقاقير، ولذلك يعتبر من علماء النبات فحسب.

وأما ابن البيطار فهو من أكبر المهتمين بالأعشاب والنبات، وقد نزح من الأندلس إلى الشمال الإفريقى، ثم جاء إلى مصر والتحق بخدمة البلاط الأيوبى. وكان يجمع النباتات ليجرى دراسته عليها، كما كان يدقق فى تجاربه ويعرف خصائص الأعشاب والنباتات. ولابن البيطار مؤلفات نفيسة فى علم النبات، وتتلمذ على يديه عالم النبات المسلم الطبيب ابن أبى أصيبعة.

وقد وصف علماء النبات المسلمون النباتات، وصنفوها، ووصفوا النافع منها والضار، كما اهتموا بوصف دقائق النبات والبيئة التى ينمو فيها.

ويعد الشيخ الرئيس ابن سينا من علماء النبات، حيث خصص الكتاب الثانى من القانون لدراسة النبات، وقد ذكر أجناس النبات فقال منها: الشجرية والعشبية والزهرية والقطرية وغيرها. وقد وصف ابن سينا ما يقرب من أربعمائة صنف من النباتات، كما تحدث ابن سينا عن توالد النبات وأنثاه وذكره. وقال: إن النبات قد شارك الحيوان فى الأفعال والانفعالات المتعلقة بالغذاء إيرادًا على الجسم وتوزيعًا.

ومن علماء النبات الذين أسهموا بالكتابة والتأليف فيه العالم القزوينى صاحب المؤلف النفيس الذى اختار له عنوان «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ووصف فيه كثيرًا من أنواع النبات والخضر والفاكهة، وقد ركز اهتمامه كما فعل كثيرون من علماء النبات المسلمين على النباتات الطبية.

وتتجلى دقة الملاحظة عند القزوينى فى وصفه للحركة اليومية للأزهار وأوراق النبات، كما شرح تأثير البيئة ووفرة المياه وطرق الرى على النبات.

ويعد ابن وحشية صاحب كتاب الفلاحة النبطية من علماء النبات الذين أسهموا فى إثراء المكتبة العربية بمعلومات قيمة عن النبات ضمنها كتابه بالإضافة إلى غيره من الأبواب.

وابن وحشـية من علماء القرن الثالث الهجـرى، وهو لا يكتفى بوصف النبات أو تصنيفه وتبويبه، وإنما يذكر الهدف من تأليف الكتاب بأنه أراد صلاح الأرض وصلاح الزرع والأشـجار وعلاج آفاتهـا، وعلى هذا يمكن القول بأن علماء النبات المسـلمين عرفوا علم أمراض النبات Plant Pathology وعلاجها، ذلك التخصص الذى يعتبر تخصصا حديثًا بين التخصصات العلمية. كما يمكن القول بأن علماء النبات المسـلمين عرفوا علم النبات.

كما تحدث ابن وحشـية أيضا عن الغلال والحنطـة، وطريقة حفظها وتخزينها. وهـذا يدل علـى مدى اهتمام هذا العالم بالزراعة والنبـات، ومدى حرصه على حفظ الحبوب مخزونة مما يؤكد دقة علماء المسـلمين، ودقة تخصصاتهم فى مجال النبات وخاصة بالنسـبة لابن وحشـية فقد تتبع مراحل النبات، وكيفية زرعه والعناية به، وملاحظة نموه وتطوره، وما يعرض له من آفات وكيفية حمايته منها، كما اهتم بالرى ووسائله، وطرق استخراج الماء، وانتهى إلى طرق خزن القمح باعتباره غلة من الغلات الأساسية فى كل زمان.

وتجـب الإشـارة إلى أن علمـاء النبـات اللاحقين لابن وحشـية قد أفـادوا من كتابـه «الفلاحة النبطيـة» الذى يعد مصـدرا عظيما جليل الشـأن فى وقايـة النبات وتخزين الحبوب.

واعتنى العلماء المسـلمون بالحيوان، وصنفوا فيه مؤلفات متخصصة. ومن أشهرهم القزوينى السابق الإشارة إليه، والدميرى صاحب كتاب الحيوان، والجاحظ وابن سينا الذى درس الحيوان وقدم نماذج وصف فيها أنواع الحيوانات والطيور وفصل الحديث عن الحيوانات المائية والبحرية والبرمائية، كما قام ابن سينا بتشريح هذه الحيوانات وأورد وصفا لذلك.

واهتـم القزوينى أيضـا بالحيوان فذكر فـى كتابه «عجائـب المخلوقات وغرائب الموجودات» أقسـام الحيوان، فذكر أن من الحيوان ما يمشى وما يطير وما يعوم، كما ذكر أشـكال الحيوانات، وتجميعها للغذاء وحفظه لوقت الشـتاء، ولاحظ حذقها فى تخزينه وهندستها فى حفظه.

ويعـد كتاب الحيـوان للجاحظ من أشـهر المؤلفات العربيـة على الإطلاق، والكتاب ضخم يقع فى سبعة أقسام. وقد ذكر الجاحظ أن الحيوان ثلاثة أقسام: شـىء يمشى، وشىء يسـبح وشىء ينسـاح، والشئ الذى يمشـى ناس وبهائم وسباع وحشرات.

وذكر فى حديثه عن الحيوان أنه ليس كل عائم سمكة، وإن كان مناسبًا للسمك فى كثير من معانيه إلا كلب الماء وعنز الماء وخنزير الماء والسلحفاة والدلفين وغيرها.

والحيـوان فيه الفصيـح والأعجم، أما الفصيح فهو الإنسـان، وأمـا الأعجم فهو الحيوان، ومنه ما يصهل ويقوق وينعق وينعب ويزأر.

وسـجل الجاحظ ملاحظاته عن سلوك الحيوان وأجرى بعض التجارب عليه وكان يضع الحيوانات تحت نواقيس وأوان زجاجية ليراقب أطوار سلوك الحيوان ويسجل ملاحظاته عنه، كما قام أيضًا بتشريح بعض الحيوانات.

ويعد الدميرى من أشـهر العلماء المسـلمين الذين كتبوا فـى الحيوان، فقد صنف معجماً رتب أسماء الحيوانات وفقاً للحروف الأبجدية، واعتمد الدميرى على أرسـطو وابن سـينا وابن سـيده والقزوينى، وكان يستشـهد بآرائهم. وكتـاب حياة الحيوان الكبرى مصدر من المصادر الأساسـية فى دراسة الحيوان يمثل جهود العلماء المسلمين فى العناية بالعلوم ودراستها.

ويجب التنويه إلى علماء المسـلمين بتخصصاتهـم المختلفة، وبما تركوه من مصادر أصيلـة كانت الأصول التى اعتمدت عليهـا أوروبا فى حركة النهضة وحركة الإحياء الأوروبى، ذلك أن ما قدمه العلماء المسـلمون يعتبر الركائز الأساسـية التى بنى عليها العلم الحديث.

كما كان لأسـلوب العلماء المسـلمين قيمة أساسـية فى تطور العلـوم فهم واضعوا أسس المنهج العلمى فى البحث، فقد عرفوا أهمية المشاهدة والتجربة وتسجيل النتائج وتجميـع البيانـات والأدلة والقرائن، وقد ذكر جابر بن حيـان أن المعرفة لا تحصل إلا بالتجربة، وأنه على الذين يعنون بالعلوم الطبيعية أن يفهموا هذه التعليمات جيداً لأن كل صنعة لها أساليبها.

وقد اعترف علماء أوروبا بفضل العلماء المسلمين عليهم، يقول المستشرق كاجورى: إن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية التى حسبناها من صنعنا وإذا بالعرب قد سبقونا إليها، والواقع أن وجود ابن الهيثم والخازن والبيرونى وجابر وابن سينا وغيرهم كان ضرورياً لظهور جاليليو ونيوتن من علماء أوروبا.

## الآداب

أينعت الثقافة الإسلامية وأسهم المسلمون فى نموها وتطورها بما أنتجوه من روائع فكرية وأدبية وفلسفية ولغوية تعكس أستاذيتهم فى تلك المجالات. وقد ازدهرت الآداب فى ظل الإسلام مثلما ازدهرت العلوم، وأثرى مفكرو الإسلام التراث الإنسانى بتصانيفهم وأعمالهم الجليلة فى الآداب بشتى فروعها.

تقدمت علوم الدين وعلم اللغة، وظهرت الفلسفة وتعلم المسلمون وتأثروا بالثقافة التى وجدوها فى البلاد المفتوحة، فاستوعبوا ما تناسب مع حضارتهم وثقافتهم وصاغوه مع ما صاغوا من أفكار. كذلك ظهرت الكتابة التاريخية حين بدأ المسلمون يدونون تاريخهم، كما برز كثير من علماء المسلمين الذين اعتنوا بدراسة الجغرافيا والظواهر الطبيعية، وآثار المفكرين المسلمين كثيرة يحار الباحث فيها بل لا يستطيع أن يعدها، فكل يوم يطالعنا بكشف عن مخطوط نادر أو أصل من الأصول الأولى للفكر الإسلامى، ليضيف جديداً إلى معلومات المؤرخ عن الإنتاج الأدبى الضخم الذى تركه المسلمون.

وتغلب على المصنفات الأدبية الإسلامية صفة الموسوعية مثلها مثل المؤلفات العلمية، فنجد الفقيه يكتب فى التاريخ والتفسير واللغة، كما نجد المؤرخ يتناول موضوعات متعددة حضارية واقتصادية واجتماعية إلى غير ذلك من الكتابات.

وشهدت مدينة رسول الله ﷺ بوادر النهضة الأدبية الإسلامية، ففى المسجد الجامع فى المدينة كان المفسرون يشرحون القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ.

كما اهتم العرب بالثقافة والشعر ذلك الاهتمام المورَّث من أيام العرب، ولقاءاتهم الأدبية والشعرية فى سوق عكاظ وغيرها.

والشعر العربى يقف شاهدا على مدى فصاحة اللغة العربية التى ازدادت وتأكدت بنزول القرآن الكريم بها، ومن ثم بدأ المسلمون يهتمون بها ويولونها

عنايتهم،وبصفة خاصة بعد انتشار الفتوحات، ودخول أهالى البلاد المفتوحة فى الإسلام، حيث بدأوا فى تعلم اللغة العربية، وخشى المسلمون دخول العجمة إلى لغتهم فصنفوا أعمالهم النفيسة فى النحو حماية للغتهم وتأصيلا لها.

وقد بدأ اهتمام المسلمين بعلوم الدين يزداد بعد وفاة النبىﷺ، فبدأ رجال التفسير والحديث فى المدينة يعملون فكرهم، وكان من أشهرهم ابن عباس صاحب التفسير، الذى فسر القرآن الكريم وهو صغير، وأصبح من أشهر مفسرى الإسلام.

ولم يهتم المسلمون الأول بالتسجيل والتدوين، فقد كانوا يعتمدون على الرواية الشفوية، وقد بدأ التسجيل والكتابة فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وترجع خشية المسلمين من التدوين إلى اختلاط ما يكتبونه بالقرآن الكريم والسيرة النبوية، فلما جمع القرآن الكريم وظهرت المصاحف العثمانية. أصبح من اليسير تسجيل السيرة النبوية، ومن بعد ذلك نشط المسلمون فى الكتابة، فظهرت كتب الطبقات، وكتب التاريخ واهتم الخلفاء الأمويون بالعلم والعلماء وجلبوا لهم الكتب لتزجمتها، وينعكس اهتمام خلفاء بنى أمية بالعلم فى حرصهم على اقتناء الكتب القديمة وتشجيع علماء المسلمين على دراستها.

## التاريخ والمؤرخون المسلمون :

اهتم العرب بالأنساب ورواية الأخبار التاريخية وقصص البطولة وأنباء الحروب. وكان للرواة دورهم فى حفظ التواريخ، ويمكن القول بأن العرب عرفوا التاريخ المدون، فقد ظهر فى فترة مبكرة من تاريخهم مؤرخون وإخباريون ورواة للتاريخ من بينهم النضر بن الحارث ومخرمة بن نوفل وعقيل بن أبى طالب.

ويعد عبيد بن شريه الجرهمى اليمنى من أوائل المؤرخين العرب، وقد صنف كتابا عن ملوك اليمن القدامى، وتخبرنا المصادر أن معاوية استدعاه إلى بلاطه فى دمشق حيث كلفه بكتابة تاريخ للعرب سماه «كتاب الملوك وأخبار الماضيين»[1].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية. القسم الأول ص ٥.

وانظر M.Dunlop., Arab Civilization to AD 1500, P.70

نشر كتابه شريه الجرهمى فى حيدر أباد الدكن بالهند عام ١٣٤٧ هـ بعنوان كتاب الملوك وأخبار الماضيين

ويأتى فى نفس المرتبة معاصره وهب بن منبه اليمنى صاحب كتاب التيجان وملوك حمير، إذ يعد من المؤرخين الأوائل الذين عنوا بتاريخ شبه جزيرة العرب، والذى اعتمد عليه كثير من المؤرخين من بينهم محمد بن جرير الطبرى[1].

ومن رواد الكتابة التاريخية فى المدينة أبان بن عثمان بن عفان الذى درس الفقه والحديث، وكتب صحفا عن سيرة رسول الله ﷺ بين فيها حياته وغزواته وجهاده.

ويعد عروة بن الزبير بن العوام من أوائل المؤرخين الذين كتبوا فى سيرة رسول الله ﷺ وعنه أخذ كل من ابن هشام وابن سعد، وقد اشتملت كتاباته على فترة صدر الإسلام متضمنة السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين وقد كانت أساسا اعتمد عليه الطبرى فى كتاباته.

ويعد ابن شهاب الزهرى من أعظم كتاب السيرة، بل إنه مؤسس المدرسة التاريخية فى المدينة[2].

وقد شهد القرن الثانى الهجرى نشاطا فكريا ملحوظا فيما يتعلق بكتابة السير والمغازى، وتأتى أهمية هذه المرحلة من أنها تمثل نماذج من الكتابة التاريخية المبكرة عند المسلمين، وكان من أبرز رجال هذه المرحلة موسى بن عقبة مولى الزبير بن العوام، وتبعه فى هذا الفن كثيرون كان من أهمهم الواقدى وابن سعد كاتبه وتلميذه.

وتبوأ ابن إسحق صاحب كتاب المغازى أو سيرة رسول الله ﷺ فترة النضج التاريخى بالكتاب الذى وضعه بناء على طلب الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور حين التقاه بالحيرة.

والأصل الذى دونه ابن اسحق لم يصل إلينا إلا عن طريق ابن هشام الحميرى الذى هذب المغازى واختصرها وأصبحت معروفة ومشهورة بسيرة ابن هشام. وقد ذكر الإمام الشافعى أهمية كتابات ابن اسحق كما اهتم المستشرقون بالسيرة الإسحاقية فقاموا بترجمتها منذ القرن التاسع عشر.

---

(١) ينسب هذا الكتاب أيضا إلى ابن هشام.

(٢) انظر فتحية النبراوى: علم التاريخ: دراسة فى مناهج البحث، ص ٩٥ : ٩٧

وقد كانت مغازى ابن إسحق مصدراً لكل من الواقدى والطبرى، وتظهر آثارها بشكل ملحوظ فى مغازى الواقدى، وتاريخ الرسل والملوك، حيث توجد فقرات كاملة منها دون إشارة إليه أحيانا.

ويمثل الواقدى مرحلة هامة فى الكتابة التاريخية عند المسلمين وإن رماه المتأخرون بالضعف وجرحوا أخباره، وعلى يديه تتلمذ ابن سعد الذى صنف كتاباً فى الطبقات يعد من المصادر الأساسية فى تاريخ المسلمين، وقد التقى محمد بن سعد بكبار شيوخ الحديث فى عصره سواء من قابل فى مدينة رسول الله ﷺ أم غيرها، أمثال سفيان بن عيينة أو أبى الوليد الطيالسى ومحمد بن سعدان الضرير ووكيع بن الجراح وغيرهم، وهم من الرجال المعتد بهم فى رواية الحديث والذين لا يتطرق الشك إلى عدالتهم[1].

وجذبت العاصمة العباسية مؤرخى المدينة فانتقلوا إليها، وانتقلت معهم المدرسة التاريخية إلى العراق. وفى العراق ازدهرت الكتابة التاريخية، وإلى جانب بغداد تظهر مدرسة البصرة التاريخية التى كان لها باع طويل فى كتابة التاريخ.

وفى العصر العباسى يظهر محمد بن جرير الطبرى مصنف الموسوعة الكبرى فى التاريخ الإسلامى (تاريخ الرسل والملوك). وإن تربع الطبرى على قمة الكتابة التاريخية فى القرن الثالث وجزء من الرابع فتجب الإشارة إلى المصادر الهامة التى اعتمد عليها مما ترك السابقون من كتاب التاريخ الإخباريين وكتاب الحوليات ورواة الحديث والنسابين وغيرهم.

وتعد كتابات أبى مخنف لوط بن يحيى بن سعد الأزدى من المصادر الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى الذى قدم خدمة جليلة للتاريخ حين استخدم كتابات أبى مخنف بإسهاب؛ إذ لم يبق مما كتب وهو كثير سوى ما حفظه لنا الطبرى فى تاريخه الكبير.

وأبو مخنف من الكتاب العلويين ومن ثم تظهر ميوله الشيعية وينعكس ذلك فى اهتمامه بالكتابة عن العلويين والخوارج، ومن هنا كان الحذر ضروريًا عند تناول أخباره فيما يخص بنى أمية والدول الأموية.

---

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى. جـ ١ ص ٧.

وقـد تأثر الطبرى فى كتابته بمنهج المحدثين؛ فهو يهتم كثيرًا بالرواية المسـندة وتبعـه عدد من المؤرخين على رغم أن طول الإسـناد يعقـد الكتابة التاريخية ويجعل الحقائق تائهة بين طول الإسناد وطول الرواية.

ومع القرن السـادس الهجرى تأتى مرحلة الصقل فى الكتابة التاريخية؛ وتتضح أسسها وقواعدها إذ أصبح التاريخ فى عداد العلوم أو الفنون ذات الأصول الراسخة.

ومن أهم المظاهر التى تسترعى الانتباه ظهور بعض الكتابات التاريخية الخالية من التعقيد اللغوى مثل كتابات ابن الأثير؛ وتشـهد القرون الثلاثة من السابع إلى التاسع تطـورًا كبـيرًا فى الكتابة التاريخية. فقد وضع المسـلمون أسسًـا للكتابة التاريخية، بحيث أصبح من الممكن تحديد معالم الكتابات التاريخية المختلفة.

أرخ بعضهـم وفقًا للسـنوات، ومن ثـم ظهرت الحوليات، وأرخ البعض الآخر حسـب الموضوعات فكتبوا دراسـات متخصصة فى النظم والقوانين والأحكام، والملل والنحل والنقود والخراج. وصنفوا التراجم، فظهرت معاجم الأدباء، وكتب الوفيات، وكتب الأعلام شارك فيها ياقوت الحموى، وابن خلكان، وابن الفوطى والكتبى والذهبى وابن حجر والسخاوى.

ويمكن تقسـيم كتب التاريخ إلى قسمين: الأول التاريخ العام Universal History والثانـى التاريـخ المحلى Local Hisytory أما الأول فيمثـل منهجًا تميز به التاريخ الإسـلامى، إذ يبدأ المؤرخ فيه بكتابة تاريخ الخليقـة منذ بدايتها وينتهى إلى حيث ينتهى به الأجل.

وأما الثانى فيعكس نزعة محلية قومية فنرى عددًا كبيرًا من المؤرخين يهتم بتاريخ مدينـة أو إقليـم أو دولة، فتظهر المؤلفات الكثيرة عن المدن الإسـلامية الكبرى كالبلد الحرام والقدس وفاس والقيروان ودمشق وحلب والإسكندرية، كما نجد من بين المؤرخين من عنى بتاريخ مصر أو القاهرة أو الشام أو الجزيرة. ومنم من كتب سيرة ذاتية لزعيم من زعماء المسلمين فكتبوا عن ابن طولون، ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم.

وقـد تأثر المؤرخون المتأخرون بـكل تلك الاتجاهات، فنجد المقريـزى يكتب فى التاريخ العام، كما يصنف الرسائل والكتب المتخصصة، وعن المؤرخين المسلمين أخذت أوروبا، وانتقل المنهج الإسـلامى فى كتابة التاريخ إلى الأندلس، وبدأ الأوروبيون يكتبون وفق نظام الحوليات التى تتشابه مع الحوليات العربية.

## الجغرافيا :

اهتم المسلمون اهتمامًا كبيرًا بعلم الجغرافيا، وتعددت كتبهم ومصنفاتهم ومؤلفاتهم واختراعاتهم ومبتكراتهم فيها، ولاتزال هذه الكتب وتلك الإنجازات بالرغم من مرور قرون عديدة عليها أصلا لعلم الجغرافيا الحديث.

ويمثل إنتاج العلماء المسلمين فيما يتعلق بالجغرافيا مرحلة هامة بل أساسية فى تاريخ الفكر الجغرافى، فقد أثروا علم الجغرافيا بكتاباتهم وظهرت فى مؤلفاتهم دقة التحرى والأمانة العلمية، وأسهم ما قدموه من مخترعات فى تطور علم الجغرافيا فى العصور الحديثة.

كانت عناية المسلمين بالجغرافيا مرتبطة بالبيئة التى عاشوا فيها، فالصحارى مترامية الأطراف من حولهم تدعو إلى ذلك، فلم يكونوا يستطيعون التجوال فيها دون هداية النجوم والكواكب لتحديد طرقاتهم ومعرفة الاتجاهات الأصلية لما له من ارتباط بتحديد مواقع القبلة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النحل].

ومن المنطقى أن نشير فى حديثنا عن علم الجغرافيا عند المسلمين إلى مواقف العلماء والجغرافيين من الجغرافيا القديمة، كيف درسوها وأفادوا منها وصححوا ما ورد فيها من معلومات خاطئة ثم أضافوا إليها وطوروها.

كانت كتابات الجغرافى المصرى السكندرى بطليموس من أهم ما كتب فى الجغرافيا القديمة، وأشهر كتاباته المدخل إلى علم الجغرافيا، والجامع فى الفلك، وهو الكتاب الذى ترجمه الحجاج يوسف بن مطر: ١٧٠: ٢٢٠هـ/ ٧٧٦: ٨٣٠م بعنوان المجسطى، وتعنى الكتاب الأعظم، وقد حفظت الترجمة العربية الكتاب من الضياع فمن المعروف أن الأصل القديم له مفقود.

وصقل الترجمة الأولى مترجم عربى شهير هو ثابت بن قرة الحرانى ٢٢١: ٢٨٦ هـ/ ٨٣٥: ٩٠٠ م، وقام بعد ترجمته باختصاره بغرض إفادة طلاب العلم منه بعد تبسيطه وتسهيل المعلومات الواردة فيه.

ولم تعرف أوروبا المجسطى لبطليموس السكندرى إلا عن طريق العرب حين ترجم الكتاب إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى حيث ترجمه جيراردو القرمونى Grardo Cremona فى عام ١١٧٥ م.

أما الكتاب الآخر المعروف باسم المدخل إلى الجغرافيا فقد ترجمه أيضًا ثابت ابن قرة الحرانى بعنوان جغرافيا، وترجمه كذلك محمد بن موسى الخوارزمى، وقد أفاد منه الخوارزمى بشكل يظهر فى كتابه المسمى صورة الأرض الذى يعد من أقدم الآثار فى جغرافية المسلمين، ومن الجدير بالإشارة أن الخوارزمى لم يشتهر كجغرافى قدر شهرته للرياضيات، ولم يعرفه العالم إلا باعتباره علمًا من أعلامها ووصفه جورج سارتون فى كتابه المدخل إلى تاريخ العلم بأنه أكبر رياضى ظهر عبر كل العصور[1].

ومن المرجح أن المسلمين قد عرفوا أيضًا كتابات الجغرافى اليونانى مارينوس الصورى Marinus to Tyre، وأفاد المسعودى منه بشكل خاص وأشار إليه فى كتابه التنبيه، وفرق بينه وبين بطليموس السكندرى.

والأصل الذى وضعه مارينوس مفقود، ولم يعرفه العالم الحديث إلا عن طريق العرب كما لم تعرفه أوروبا إلا من خلال الكتابات الجغرافية الإسلامية. ويذكر المستشرق نيللينو أن الخوارزمى قد أفاد من جغرافية مارينوس، ويظهر ذلك فى صورة الأرض، ويؤكد نيللينو أن الخوارزمى أفاد أيضًا من مصادر يونانية أخرى لم يذكرها.

ودرس المسلمون أيضًا جغرافية الهند والصين وتأثروا بالفكر الجغرافى فيهما ويتضح ذلك فى كتابات ابن رسته الذى حدد خط الاستواء.

والجغرافيون المسلمون كثيرون من بينهم ثابت بن قرة الحرانى الذى يعد من أوائل المهتمين بالجغرافيا، وله مؤلفات قيمة حول الكسوف وعلته، وحركة الفلك، كما كتب شروحًا وتفسيرات على كتاب المجسطى لبطليموس، وله أرصاد قيمة قام بها فى بغداد وتمكن من حساب حركة الشمس.

---

(1) George Sarton, Introduction to the History of Science, Balitimore, 1946.

وابـن خرداذبة من جغرافيي القـرن الثالث الهجرى الذى وضع كتابه المسـالك والممالك لأحد الأمراء العباسـيين، ويعد كتابه كتابًا فـى الجغرافية الوصفية، ويرى المستشـرق دى خويه أن النسخة الأولى لكتاب المسالك والممالك يعود تاريخها إلى عام ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م إلا أن المؤلـف أضـاف إضافات كثيرة فى تواريخ لاحقة وهو يعترف فى مقدمة كتابه باعتماده على بطليموس. وقد أفاد منه أحمد بن الطيب السرخسـى الذى صنف مؤلفًا يحمل نفس العنوان عام ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م.

ويعـد أبو عبيد الله محمد بـن جابر البتانى من أهم جغرافيى القرن الثالث الهجرى وبداية الرابع فقد توفى فى ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م، وقد كان البتانى يدرس فى مرصده حركات النجوم ويطابق معلوماته على ما ورد فى المجسطى والسند هند، ومن أشهر كتاباته الزيج الصابئ الذى حققه المستشـرق نيللينو. ومن أعماله الهامة كتاب الأطوال والعروض التى كانت أساسًا للجداول الجغرافية Georgaphical Tables التى وضعها المسعودى.

والإصطخرى وابن حوقل من أعظم الجغرافيين المسـلمين وتعد صورة الأرض التى وضعها ابن حوقل من الأعمال الهامة فى الجغرافيا، ويعتبر الإصطخرى أول من وجه الاهتمام إلى وصف الأرض وقد أفاد منه ابن حوقل بدرجة كبيرة.

ومـن علماء المغرب الإدريسـى الذى رحـل إلى الأندلس وتلقى العلـم على علماء ومفكرى قرطبة، ثم استقر فى صقلية واتصل بخدمة الملك النورماندى روجر الثانى.

وكتـاب نزهة المشـتاق فى اختراق الآفاق، من أهم أعمالـه الجغرافية، ويزيد من أهميتها مجموعة الخرائط النفسية التى ربت على السبعين، كما صنف الإدريسى كتبا أخرى فى الجغرافيا. وقد أفاد الإدريسـى من ابن خرداذبة وسـليمان التاجر صاحب أخبار الصين والهند، ونقل معلومات عن سرنديب (سيلان)، وذكر أن جزيرة سيلان غنية بمواردها الطبيعية، وخاصة اللؤلؤ الذى يستخرجه الغواصون من البحر.

وألف ابن رسـته كتاب الأعلاق النفيسة واعتمد فيه على من سبقه من الجغرافيين المسلمين وغير المسلمين.

ويعـد كتـاب حدود العالم لمؤلف مجهول من أهم الآثار الجغرافية إذ يقدم صاحبه فيه معلومات قيمة عن جغرافية خراسان فى القرن العاشر. وقد ترجم Minorsky هذا الكتاب إلى الإنجليزية عام ١٩٣٧.

وفى القرن الرابع ظهر المقدسى حيث وضع كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، وقد انتهى من تأليفه عام ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، وقد وصفه المستشرق الروسى بارتولد Barthold بأنه أعظم الجغرافيين الذين عرفهم العالم على مر العصور، كما عدّه شبرنجر أعظم جغرافيى العالم على الإطلاق[1].

وكتب المسلمون أيضًا معاجم جغرافية أهمها معجم البلدان لياقوت الحموى. وكان للرحالة المسلمين دورهم فى تسجيل مشاهداتهم عن البلدان التى زاروها، وأفادت منها دراسة الجغرافيا بشكل كبير، من أهمهم ابن فضلان الذى ذهب فى بعثة أرسلها الخليفة المقتدر إلى الفلجا والبلغار عام ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م، وقد ترك ابن فضلان تسجيلا لرحلته، يصف فيها عادات وتقاليد وأخلاق الخزر والروس ومعلومات أخرى كثيرة ينفرد بها.

كذلك كان لرحلات ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما أهميتها فى دراسة الجغرافيا، وهما يمثلان مرحلة من مراحل الكتابة الجغرافية عند المسلمين.

وللجغرافيين المسلمين إنجازات هامة فقد عرفوا أوروبا الشمالية قبل الأوروبيين، وعرفوا النصف الجنوبى من إيطاليا معرفة دقيقة، وحددوا القارة الأفريقية وعرفوا المحيط الأطلنطى وسموه بحر الظلمات. وعرّف المسعودى الرياح الموسمية فى المحيط الهندى وحدد مواعيدها ووصف أثرها على الملاحة.

ويستنتج البيرونى أن سهول شمال الهند كانت قاع بحر ردمته الرواسب، ويفرق بين الخليج والمصب الخليجىّ، فيذكر أن الأول عبارة عن ذراع من البحر يتوغل فى اليابس، وأن الآخر عبارة عن بئر غمرتها المياه، وفسّر حركة المد والجزر وربط بينهما وبين أوجه القمر.

وتحدث الجغرافيون المسلمون عن الجغرافيا الاقتصادية والثروة المعدنية والإنتاج الزراعى، وتحدثوا عن الطرق والمسالك، وناقشوا موضوع السكان وحياتهم الاجتماعية، وأنماط هذه الحياة وقدموا الإحصائيات؛ وذلك لأهميتها عند جمع الخراج وجباية الجزية، كما ذكروا مراكز الاستقرار.

---

(1) M. Dunlop, Arab Civilization to A.D. 1500. P. 165.

ولم تعرف أوروبا أفريقيا إلا عن طريق العرب، وظلت كتاباتهم هى المرجع الوحيد لكثير من الأماكن والمناطق والبلدان حتى القرن التاسع عشر.

وتجدر الإشارة إلى الجغرافى الحسن بن محمد الوزان الذى عاش فى أوروبا والذى عرف باسم Leo Africanus ليو الأفريقى الذى وضع كتابًا عنوانه وصف أفريقيا عالج فيه جغرافية النصف الشمالى من القارة، ثم قام بترجمة هذا الكتاب إلى الإيطالية للبابا ليو العاشر، ويرى ماسينيون أن ليو الأفريقى غير عربى وأنه وضع كتابه باللغة الإيطالية[1].

والجغرافيون المسلمون هم الذين وضعوا أساس علم المحيطات Oceanography كما وضعوا أصول علم الخرائط، وكانت صورة الأرض للخوارزمى من أوائل الكتب التى تضمنت عددًا من الخرائط.

ووضع البلخى أول أطلس عربى ألحقه بكتابه صور الأقاليم، وشهد عصر المأمون جهود المسعودى فى رسم الخرائط أو الصورة المأمونية، وقد اعتمد فى رسم الأرض على بطليموس السكندرى، واشترك معه عدد من علماء عصر المأمون وصوروا العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وغامره وعامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك فجاءت أحسن مما تقدمها من محاولات.

وهكذا ترى جهود الجغرافيين المسلمين فى حفاظهم على التراث الجغرافى القديم، ودورهم فى إقامة هذا العلم على أسس من التجربة والملاحظة والابتكار أسهمت فى تطوير الفكر الجغرافى الأوروبى مما أدى إلى نجاح حركة الكشوف الجغرافية.

## الفلسفة الإسلامية :

تأثر المسلمون بالمدارس الفلسفية القديمة وخاصة مدرسة الإسكندرية التى وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام مفكريها ومنهم يوحنا النحوى الذى تذكر المصادر أنه التقى بعمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية. وقد تعرف المسلمون على كتابات الفلاسفة

---

(١) كراتشكوفسكى. تاريخ الأدب الجغرافى. ص ٥٤١، ٥٤٤ ترجمة صلاح الدين عثمان. القاهرة ١٩٦٢

الإغريق وخاصة أرسطو الذى كانت كتاباته معروفة ومترجمة فى الإسكندرية؛ ذلك أن نشاطًا فلسفيًا عظيمًا شهدته الإسكندرية وخاصة بعد أن أغلق جستنيان المدارس الفكرية فى أثينا فى عام ٥٢٩ م فهاجرت العقول اليونانية إلى الإسكندرية واستقرت فيها.

كما تأثر المسلمون أيضًا بفلسفة الهند وما وجدوه فى إيران والأقاليم المفتوحة، وقد اهتم الخلفاء الأمويون بالفلسفة. ودعا الأمير خالد بن يزيد فلاسفة من الإسكندرية استقبلهم فى دمشق، كذلك أبدى الخليفة عمر بن عبد العزيز اهتمامه بمدرسة الإسكندرية الفلسفية واتصل ببعض مفكريها.

إن جهل بعض المستشرقين بعلوم العرب وإنجازاتهم فى المجالات الفكرية فى بداية الأمر جعلهم يصدرون الكثير من الأحكام الخاطئة عليهم. لكنهم بعد أن تعلموا العربية، وأماطوا اللثام عن كثير من منجزات المسلمين، بدأوا يعترفون بأثر الفلسفة الإسلامية فى الفكر والثقافة والحضارة الأوروبية.

ويبدو أن الفلسفة لم تلق اهتمام مفكرى المسلمين مثل بقية العلوم لكنها بدأت تجذب بعض العقول المثقفة مثل خالد بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز وذلك فى العصر الأموى، ثم يأتى الكندى الذى يعد من أوائل الفلاسفة المسلمين.

وقد ارتبط ظهور الفلسفة بشكل جاد مع الترجمة، التى بدأت فى العصر الأموى حيث يمكن أن يستنتج أن المسلمين قاموا بترجمة بعض الأعمال الفلسفية.

ويعود اهتمام المسلمين بترجمة الأعمال العلمية والفلسفية إلى بداية العصر الأموى فتشير المصادر إلى أن الخليفة مروان ٦٤ : ٦٥ هـ/ ٦٨٣ : ٦٨٤ م كلف ماسروجيه اليهودى بترجمة كتابات الكاهن السكندرى هارون القس، ويبدو أن الترجمة كانت من السريانية إلى العربية.

كذلك اهتم عمر بن عبد العزيز بخزائن الكتب ووفرها للعلماء فى دمشق الذين عكفوا على الدرس والتحصيل، ويبدو أن الترجمة العربية للعهد الجديد قد تمت فى ذلك الوقت.

وهنالك إشارات إلى أن خالد بن يزيد قد أمر بعض الفلاسفة المصريين فى الإسكندرية بترجمة الكتب اليونانية وخاصة فى الكيمياء والطب.

وكان البطريـق وابنـه زكريا من أوائـل المترجمين الذين نقلوا الفكـر اليونانى إلى العربية، وكان يحيى بن البطريق أول من ترجم الفلسـفة اليونانية إلى العربية حيث ترجم أعمال أرسطو وأفلاطون.

وتشـير المصادر إلى أن الكندى خدم المأمون والمعتصم وأسـهم فى النهضة الفكرية التى شهدتها بغداد وخاصة حركة الترجمة. وقد قام الكندى بشرح الفلسفة اليونانية حتى إن ابن النديم وصفه بأنه فيلسـوف العرب. ولم يعرف العالم الكندى فيلسـوفا إلا عندما اكتشـف المستشـرق الألمانى هلموت ريتر مجموعة رسائل فى إستانبول بلغ عددها ستين رسالة[1].

وللكندى تفسـيرات وشـروح للوجود والكون ووحدانية الله والخلق مما يضعه فى عداد الفلاسـفة. وله نظرية فى المعرفة: فيرى أن مصادر المعرفة هى العقل والحواس والخيـال، فالعقل يدرك الكليـات وما لا تدركه الحواس، والحواس تدرك الجزئيات والماديات، أما الخيال فيأتى وسطا بين الاثنين. ونسب الأوروبيون هذه النظرية، أى جعل الخيال وسطا بين الإدراك العقلى والإدراك الحسى، إلى الفيلسوف كانط إلا أنها فى واقع الأمر من أسس نظرية المعرفة عند الكندى. وقد ظهرت تأثيرات آراء وأفكار الكندى فى فكر الفلاسفة المسلمين بوجه عام وإن تجاهله بعضهم كالفارابى.

والفارابى من أعظم فلاسـفة المسـلمين، ولد أبو النصر محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابـى عام ٢٥٩ هـ/ ٧٨٠ م بإقليم فاراب، ومـن ثم كان لقب الفارابى الذى عرف به، وكان الفارابى قد بدأ دراسته بالطريقة الإسلامية التقليدية فدرس الفقه والحديث والتفسير وسائر علوم الدين. وقام بعدد من الأسفار، وكانت أهم رحلاته تلك التى قام بها إلى بغداد حتى تلقى دروسه فى المنطق على يدى الحكيم متى بن يونس الذى كان ضيته دائما فى بغداد، وقرأ علوم الفلسفة واطلع على كتب أرسطو ودرسها وحللها.

وزار الفارابى مصر وأكمل فيها كتابه فى الفلسـفة السياسـية عن المدينة الفاضلة، واسـتقر رحاله فى حلب حيث استقبله الأمير سـيف الدولة الحمدانى وأكرم وفادته وانتهت حياته فى دمشق عام ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م.

---

(1) M. Dunlop, Arab Civilization to A.D. 1500, P. 165.

وقـد كانت هنـاك عوامل أثرت فى تكويـن الفارابى الفكرى مـن أهمها، ثقافته الواسـعة التى اشـتملت على الدين والفلسـفة اليونانية والفكر السياسى الأفلاطونى كما كانت دراسـته وافية فى الأخلاق. ويقـال: إن الفارابى تأثر كثيرًا بأفلاطون فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة.

وكان للسياسـة العامة للدولة العباسـية ومدى ما وصلت إليه من ضعف أثره على فكر الفارابى الفلسـفى، فقد عاش فى عصر تسـلط فيه الأتراك على السـلطة، وشهد كثـيرًا من المؤامرات فى بلاط الخلفاء. كما عايش الفارابى عصرًا كثرت فيه الحركات الدينيـة وظهور غلاة المتصوفة ومن بينهم الحـلاج المتوفى عام ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م الذى أثـار بأفكاره ضجة كبيرة فـى بغداد مما أدى بالخليفة المقتدر أن اصدر أوامره بجلده وقتله وإحراق جثته.

أثارت هذه الحركات السياسية والدينية والفكرية كثيرًا من التساؤلات عند الفارابى الذى حاول الإجابة عنها، ومن بين تسـاؤلاته المهمة: هل الخلافة العباسية شرعية أم قائمة على اغتصاب السلطة؟ ومنها أيهما أحق بتولى أمر الملة بنو العباس أو سلالة فاطمـة؟ وأيهما يجب أن يكون الأسـاس الذى تقوم عليه الدولـة، العقل أو التقليد؟ الدين أو العلم؟ وهل من الممكن التوفيق بينهما؟.

سـجل الفارابـى إذن ما كان يسـود عصره مـن حركات هدامه ومذاهب فاسـدة واتجاهات خاطئة. ورسـم تصورا للمجتمع الإسـلامى فى مدينته الفاضلة التى وضع فيها أسسا لمجتمع إسلامى تزول فيه المتناقضات وتختفى فيه النقائص، وكتابه على أية حال يعتبر مقارنة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون.

وقد سـيطرت فكرة المجتمع الفاضل أو المجتمـع المثالى على عقلية بعض مفكرى الإسـلام قبل أن تشـغل أذهان المفكرين الأوروبيين بزمن طويل، ويعد الفارابى أحد المحاولين لتصور ذلك المجتمع.

لقد فرق الفارابى بين أنواع مختلفة من المجتمعات بعضها كامل وبعضها غير كامل، أما الكامل فينقسم إلى ثلاثة أنواع هى: المجتمعات العظمى والوسطى والصغرى، فالأولى هى اجتماع الناس فى المعمورة ويريد بذلك الإنسـانية، والثانية هى الأمم التى تشغل كل

منهـا بقعة محـدودة فى الجزء المعمور من الأرض، والثالثة هـى المدن. وأما المجتمعات الناقصـة فهى اجتماع أهل القرية أو المحلة أو السـكة أو المنزل، وليسـت جميع المدن فاضلة إذ لا يطلق هذا الاصطلاح إلا على المدن التى تقوم على أساس تحقيق السعادة[1].

يطلق الفارابى اسم العلم المدنى على السياسة، ويعرفه كالتالى: أما العلم المدنى فإنه يفحص عن أصناف الأفعال والسـنن الإرادية وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم التى عنها تكون الأفعال والسنن، وعن الغايات التى لأجلها تفعل، وكيف ينبغى أن تكون موجودة فى الإنسان.

فالسياسـة إذن تعـالج أحوال الإنسـان وأموره فى هذه الدنيـا، ويلاحظ الفارابى أصناف الأفعال والسنن التى يصنعها الإنسان لنفسه وبإرادته، ومعنى هذا أن الإنسان حيـوان اجتماعى يعيـش فى مجتمع يتكون منـه ومن أناس آخريـن، وإنما يصنع الترتيبـات والنظم والقوانين التى تنظم أمور هذا المجتمع والتى يتصرف أعضاؤه وفقًا لهـا أو يجب أن يكون الأمر كذلك، وهذه القوانين ليسـت واحدة فى كل عصر وكل مكان ولكنها تختلف باختلاف الأوقات والبلدان.

وأهم الكتب التى وضعها الفارابى كتاب تحصيل السعادة، وكتاب السياسة المدنية، وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة.

ويوضح الفارابى فى تحصيل السعادة عوامل ومقومات تقدم الأمم وازدهارها نلخصها فيما يلى:

أولا – العلـم: فالفضائـل النظرية التى هى العلوم التـى الغرض الأقصى منها أن تحصل الموجودات.

ثانيا – قوة الأفكار: وأما الفضيلة فهى التى يستنبط بها ما يتبدل فى مدد قصار، فهـى قوة على أصناف التدبيرات الجزئيـة، والقوة الفكرية هى القادرة على معالجة ما يواجه المجتمع من مشـكلات فى الأجل القصير وفى الأجل الطويل، ويؤكد على أهمية الدور الذى يقوم به المثقفون.

---

(١) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث. القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٨٩ وما بعدها. وقارن:
E. Rosenthal, Political Thought in Medieval Islam, pp. 122; 142.

**ثالثا – الفضائل الخلقية:** ويعتبرها الفارابى الفضيلة الرئيسية التى لا فضيلة أشد تقدما منها فى الرياسة، ويتلوها بقية الفضائل ويقول: بالفضيلة الخلقية فى الإمكان حماية المجتمع من الحركات الهدامة التى يمكن أن تقوض دعائم المجتمع وأركان الدولة.

وفى المدينة الفاضلة يعرض الفارابى آراءه عن المجتمع الفاضل الذى يجب أن يكون عليه أهل السعادة بأكمل معانيها، وهو أشبه بالجسم الكامل الذى تتعاون أجزاؤه لتحقيق الحياة والمحافظة عليها. كما أن أجزاء الجسم مرتب بعضها لبعض، وتخضع لعضو واحد هو القلب، كذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات ولكنها تخضع لرئيس.

والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذى يتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفاظها عليه، كما أن البدن أعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع القوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيسى، وأعضاء أخرى فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراضه هذه ليس بينها وبين الرئيس واسطة فهذه فى المرتبة الثانية، وأعضاء أخرى تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين فى المرتبة الثانية ثم هكذا إلى أن تنتهى إلى أعضاء تخدم ولا تخدم[1].

وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات وفيها إنسان هو رئيس وآخرون يقربون من الرئيس وفى كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقضى به ما هو مقصود من ذلك الرئيس وهؤلاء هم أولو المراتب الأولى ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء فى المرتبة الثانية ودون هؤلاء أيضًا من يفعل الأفعال حسب أغراض هؤلاء ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى آخرين يفعلون أفعالهم حسب أغراضهم فسيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ويكونون فى أدنى المراتب وهم الأسفلون.

ويتربع الإمام أبو حامد الغزالى على قمة عالية بين فلاسفة المسلمين: فهو من الباحثين عن الحقيقة الذين تحملوا مشاق الرحلة والتجوال فى سبيل الوصول إليها.

---

(١) انظر فتحية النبراوى: تطور الفكر السياسى فى الإسلام. جـ ١ ص ص ٢٠٧: ٢٠٩.

وقد عمل الغزالى فى المدرسة النظامية فى بغداد، والمدرسة النظامية فى نيسابور، وتتمثل آراء الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين الذى استحق من أجله لقب حجة الإسلام، ويرى الغزالى أن المعرفة تتم عن طريق التجربة أو بالأحرى أن التجربة هى وسيلة المعرفة، وتشمل المعرفة جوانب الحس والعقل والروح[1]. وقد ألف الغزالى كتابا فلسفيا بعنوان «كيمياء السعادة» الذى ترجمه العماد الكاتب الأصفهانى من الفارسية إلى العربية[2]، وله رسائل فى التصوف والإلهيات من أهم هذه الرسائل رسالة حى ابن يقظان.

ومن أشهر فلاسفة الأندلس ابن طفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م وهو من تلامذة ابن رشد، عمل فى بلاط بنى عبد المؤمن. ولابن طفيل تصانيف كثيرة فى الفلسفة الإشراقية والذى عرفته أوروبا خلال ترجمات له بالفرنسية والأسبانية.

وحى بن يقظان رسالة فلسفية كتب عنها ابن سينا وابن طفيل والسهروردى والغزالى وتتلخص فيمايلى:

ولد الطفل حى بن يقظان فى جزيرة مهجورة دون أم أو أب، أو أن أم حى ابن يقظان وضعته فى سلة وألقت به فى البحر فحملته الأمواج إلى تلك الجزيرة المهجورة التى نشأ وترعرع فيها حيث تبنته غزالة وأرضعته وصارت له كأمه. وشب وكبر حى ابن يقظان وأخذ يلاحظ ويتأمل، وكان الله قد وهبه ذكاء وقادًا فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير إلى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها. وقد وصل إلى ذلك بطريق الفلاسفة بطبيعة الحال، وأدت به هذه الطريقة إلى أن حاول عن طريق الإشراق الفلسفى الوصول إلى الاتحاد الوثيق بالله، وهذا الاتحاد هو العلم الغزير والسعادة العليا المتصلة الخالدة فى وقت واحد.

---

(١) د. أحمد شلبى: الفكر الإسلامى متابعة وأثاره. ص ١٠٣.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية الطبعة الأولى جـ٢ ص ٢٠، وانظر البنداري: سنا البرق الشامى. تحقيق د. فتحية النبراوى. ص ١٨٣ وقارن:
M. Watt, Encyclopaedia of Islam, 2 Act. Fhazali.

ولكـى يصل حى إلى ذلك دخل مغارة وصام أربعـين يومًا متوالية مجتهدًا فى أن ينفصل عن العالم الخارجى وعن جسده بواسطة التأمل المطلق فى الله لكى يتوصل إلى الاتصال به، حتى أدرك ما أراد.

ويرمز حى بن يقظان فى هذه القصة إلى الطريق التى كان عليها فلاسفة المسلمين. وقد صور ابن طفيل الإنسـان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان، وقد رمى من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة، ذلك الموضوع الذى شغل ومازال يشغل أذهان الفلاسفة والمفكرين.

## التصـوف :

عرّف الإمام الغزالى التصوف فقال: التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى إطلاق اسـم الصوفى، والضابط الكلى أن كل من بصفة إذا نزل خانقاه الصوفية ولم يكن نزوله فيها واختلاطه بهـم منكرًا عندهم فهو داخل فى غمارهـم. والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصـلاح، الفقر، زى الصوفية، وألا يكون مشـتغلاً بحرفـة، وأن يكون مخالطًا لهم بطريق المساكنة[1].

والتصوف لون من الذوق عرفه العرب قبل الإسلام بأجيال طوال، ومن خطأ الرأى أن يقال: إنه كان معدومًا فخلقته النزعات الإسـلامية[2].

واختلـف الناس فـى تعريف التصوف وزادت أقوالهم فـى ماهيته على ألف قول منها: التصوف عاطفة صادقة متينة الأواصر قوية الأصول لا يساورها ضعف ولا يطمع فيها ارتياب.

ومـن بـين هذه التفسـيرات أن: التصوف يعنى الإناخة على بـاب الحبيب وإن طـرد عنه. ويتمثل التصوف فى الحب والولاء، ويكون فى السياسـة التى تقـوم على أساس يتصل بالروح والوجدان. ويعتبر الزهد من التصوف لأنه من دلائل الصدق وقوة العلاقة الروحية.

---

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين. جـ ٢ ص ١٥٣.

(٢) زكى مبارك: التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق. جـ ٢ ص ٣.

يقول د. زكى مبارك: هل يمترى أحد فى روح التصوف حين يقرأ الشعر المنسوب إلى قيس بن الملوح.

لقد ثار الجدل حول تفسير كلمة صوفية واختلفت الأقوال حول اشتقاقها فتنسب أحيانًا إلى الصفاء، ويمكن إرجاعها إلى كلمة سوفيا اليونانية بمعنى حكمة، أما كلمة صوفة التى يحتمل أن تكون الصوفية نسبة إليها، فهى اسم رجل انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام واسمه الغوث بن مر.

وتنسب الصوفية أيضًا إلى لبس الصوف والتخشن فى الملبس، وفى هذا يقول اليافعى: إن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لكونه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، ولكونه لباس الأنبياء عليهم السلام فقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر. ويقول الحسن البصرى: لقد أدركت سبعين بدريًا لباسهم من الصوف، كما كان النبى ﷺ يلبس الصوف. وعن رسول الله ﷺ: «من لبس الصوف وأكل خبز الشعير وركب الأتان فليس فيه شىء من الكبر».

وذكر ابن الجوزى أن الزهد كان فى بواطن الأمور فصار فى ظواهر الثياب، وكان الزهد حرقة فصار اليوم خرقة، ويحك!! صوِّف قلبك لا جسمك وأصلح نيتك لا مرقعتك.

وكان الصوفية يلتزمون بلبس الصوف ويحرصون على ترقيعه ذلك أنهم سمعوا أن النبى ﷺ كان يرقع ثوبه، وأنه قال لعائشة لا تخلعى ثوبًا حتى ترقعيه، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان فى ثوبه رقاع، ومن ثم صارت المرقعة عنوانًا عليهم.

أما نسبة الصوفية إلى الصفاء فهذا رأى لا يقبله جمهور العلماء بل إنهم يتهكمون على الصوفية فى نسبتهم أنفسهم إلى الصفاء، حتى إن القشيرى وهو من أقطاب الصوفية استبعد هذا الرأى:

وقد قال علماء المسلمين القدامى كالبيرونى بأن الصوفية مشتقة من سوفيا اليونانية، ولكن هذا أمر مستبعد، ذلك أن سوفيا اليونانية تعنى الحكمة ومنها لفظة فيلسوف أى المحب للحكمة ثم أطلق لفظ حكيم ليساوى لفظ طبيب، ومن ذلك يتضح أن سوفيا ليست لها علاقة بكلمة الصوفية أو تصوف المعروفة عند المسلمين[1].

---

(١) انظر زكى مبارك: التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق. جـ ١ ص ص ٦٤ وما بعدها.

ويمكن أن تكون الصوفية حركة أدبية إلى جانب كونها حركة دينية فإنتاج المتصوفة أثرى الأدب العربى وأغناه. وكان الصوفية يعرفون باسم القراء والزهاد والنساك، ومن المتصوفة أقطاب البلاغة والبيان والأدب.

ومن أشهر المتصوفة فى الإسلام ابن عطاء السكندرى، والحلاج الذى لاقى مصرعه فى بغداد ومحيى الدين بن عربى وابن الفارض وغيرهم. والصوفية هم الذين أنشأوا فن المناجاة الذى يمثل التفانى فى حب الذات الإلهية.

ومن أروع ما يذكر فى هذا المجال الصورة التى وضعها الصوفية لبكاء داود عليه السلام وهو يناجى ربه. فذكروا أن دواد عليه السلام بكى أربعين يومًا ساجدًا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه، وغطى رأسه، فنودى يا داود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى فنحب نحبة هاج لها العود فاحترق من حر خوفه، ثم أنزل الله عليه التوبة والمغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام أو لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، وكان يؤتى إليه بالقدح ثلثاه ماء فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفيته حتى يفيض القدح من دموعه.

وحدثوا أنه لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال: يا رب، أما ترحم بكائى؟ فأوحى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهى وسيدى كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه، وسكن هبوب الريح، وأظلت الطير رأسى وأنست الوحوش إلى محرابى!! إلهى وسيدى فما هذه الوحشة التى بينى وبينك؟ فأوحى الله إليه: يا داود ذاك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية. يا داود: آدم خلق من خلقى خلقته بيدى، ونفخت فيه من روحى، وأسجدت له ملائكتى، وألبسته ثوب كرامتى، وتوجته بتاج وقارى، وشكا إلى الوحدة فزوجته بحواء أمتى، وأسكنته جنتى فعصانى فطردته من جوارى عريانًا ذليلاً، يا داود اسمع منى والحق أقول: أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

# المؤسسات العلمية

## المساجد :

المسجد هو المؤسسة العلمية الأولى فى الإسلام، وهو مركز الإشعاع الثقافى والحضارى الذى امتد لينتشر فى الأقاليم التى فتحها المسلمون.

والمسجد النبوى فى المدينة أول نموذج من هذه المؤسسات العلمية الذى وضعت فيه اللبنات الأولى للتعليم حيث كان المسلمون يحلقون حلقاتهم حول علماء المدينة وفقهائها يتلقون منهم علوم الدين والفقه واللغة بالإضافة إلى أمور المسلمين العامة، فقد كانت الاجتماعات السياسية تعقد فى المسجد، وفيه كانت تستقبل الوفود وتحرر العقود والمواثيق والاتفاقات، وفى المسجد كانت تبرم الصفقات التجارية، وفيه يعلن الجهاد، ومنه انطلقت مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى الآفاق.

ويروى ابن خلكان: أن حلقات الدرس كانت تعقد بالمسجد النبوى فى المدينة، ومن أشهر هذه الحلقات حلقة ربيعة الرأى فقيه أهل المدينة. وكان مالك بن أنس يأتيه ليتعلم بين يديه[1]، وربما كان هذا التقليد موجودًا فى المدينة قبل عصر ربيعة الرأى، والراجح أنه كان موجودًا منذ عصر النبوة.

ومع حركة الفتوحات الإسلامية أقام المسلمون مساجدهم فى الأقاليم المفتوحة لتكون مراكز للدين الجديد، ومراكز للعلم والمعرفة ونشر الحضارة الإسلامية.

فكانت مساجد المصرين الكوفة والبصرة، وكان مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط، ومسجد عقبة بن نافع فى القيروان، أولى المساجد الإسلامية التى فيها تأصلت اللغة العربية التى أصبحت لغة العلم والعلماء، وفيها وضعت أصول النحو لحماية اللغة العربية من العجمة، ففى المسجد الجامع بالبصرة كان الخليل بن أحمد يعقد مجلسه العلمى، وعلى يديه تتلمذ أئمة النحويين المسلمين. وفى مسجد الكوفة كانت دروس القراءات تعقد، وكان أول من جلس لإقراء القرآن الكريم وتجويده وضبطه عبد الله

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٨ وما بعدها. تحقيق د. إحسان عباس. وانظر د. حسين أمين. مجلة الآداب. مقال المسجد. العدد رقم ٢٢ لعام ١٩٦٨ ص ١٨.

ابن حبيب بن ربيعة الضرير. وفى هذا المسجد جلس الإمام على كرم الله وجهه يعلم الناس أصول دينهم كما جلس فيه عبد الله بن مسعود معلمًا للحديث والفقه.

وقد ظهرت فى الكوفة مدرسة لتفسير القرآن الكريم، كان من أهم رجالها سعيد ابن جبير، والفراء وغيرهما، وقد كانت حلقات التفسير أكبر الحلقات التى شهدها ذلك المسجد[1].

وأسهم مسجد الفسطاط فى النهضة العلمية الإسلامية منذ بدايتها، فيذكر المقريزى أن المتقدمين كانوا يجلسون للعلم بالجامع العتيق[2].

ويقول المقريزى: وفى الجامع زوايا يدرس فيها الفقه منها زاوية الإمام الشافعى يقال: إنه درس بها فعرفت به، ومنها الزاوية المجدية بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس وكان قد رتبها مجد الدين أبو الأشبال وزير الملك الأشرف، ومنها الزاوية الصاحبية والزاوية الكمالية، ويروى المقريزى عن المقرى عن ابن الفرات أنه كان بالمسجد بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[3].

ويذكر المقريزى أن أحمد بن طولون رتب فى مسجده دروسًا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن، ودرسا فى القرآن الكريم ودرسًا لحديث النبى ﷺ ودرسا للطب، ورتب للخطيب معلومًا وجعل له إمامًا راتبًا ومؤذنين وفراشين، وقومه وعمل بجواره مكتبًا لإقراء أيتام المسلمين[4].

وفى عاصمة الفاطميين قام الجامع الأزهر بدور هام فى الحركة العلمية والأدبية فى مصر، وقد عرف الجامع عند تأسيسه باسم جامع القاهرة، بل ربما ظل كذلك طوال العصر الفاطمى، وأخذ الجامع الأزهر اسمه الشهير بعد ازدهار العمائر الفاطمية وقصورهم الزاهرة، وربما نسب إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وذلك على عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله.

---

(١) حسين أمين. المصدر السابق ص ٢٠.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٣) المقريزى: الخطط ص ٢٥٦، وقارن محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر ص ١٤.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٨.

وتنافس الأزهر مع مساجد مصر الجامعة الأخرى، لكنه جذب الأنظار إليه، بل شهد حركة علمية نشطة شارك فيها عدد من علماء العصر، وكانت أولى حلقات الدرس فيه بعد ثلاثة أعوام من إنشائه، وذلك على عهد المعز أيضا. ومن أبرز العلماء الذين جلسوا للتدريس فيه القاضى أبو الحسن على بن أبى حنيفة النعمان القيروانى، فقرأ مختصر أبيه فى الفقه الشيعى[1].

ويقول المقريزى: «وفى صفر سنة خمس وستين وثلثمائة جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، ويعرف هذا المختصر بالاقتصاد، وكان جمعا عظيمًا وأثبت أسماء الحاضرين»[2].

وفى عام ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م سأل الوزير يعقوب بن كلس الخليفة الفاطمى العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفى، وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبنيت بجوار الجامع الأزهر، وكانوا يحضرون إليها يوم الجمعة، ويتحلقون للدرس بعد الصلاة إلى أن تقام صلاة العصر، وكان لهم صلة أيضا من مال الوزير فى كل سنة، وبلغ عدد هؤلاء الرجال خمسة وثلاثين رجلاً[3].

وكان يعقوب بن كلس قد رتب لنفسه مجلسا بالأزهر فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع، يجمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجرى بينهم المناظرات. كما كان يجلس أيضا فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه، ويحضر عنده القضاة والفقهاء، والقراء والنحاة، وأصحاب الحديث.

ويذكر المقريزى أيضًا أن ابن كلس قد ألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن العزيز، وهو مبوب على أبواب الفقه، قدره مثل نصف البخارى، يخبرنا المقريزى أنه ملكه ووقف عليه، ويصف الكتاب بأنه يشتمل على فقه الطائفة

---

(١) نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٦٨.

(٢) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٣٤١.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٣، وقارن محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، إذ يذكر أن عددهم سبع وثلاثون عالما، وكذلك قارن القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٣ حيث يذكر أنهم كانوا سبعة وثلاثين نفرًا.

الإسماعيلية، ويضيف أن يعقوب بن كلس كان يجلس لقراءة هذا الكتاب بنفسه، وبين يديه خواص الناس وعوامهم، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء[1].

ولم يقتصر تدريس ذلك الكتاب على الجامع الأزهر، بل إن الناس قد أفتوا به، ودرسوه في الجامع العتيق[2].

وكان صلاح الدين الأيوبي قد قلد القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك ابن درباس فعمل بمقتضى مذهبه وهو مذهب الشافعي، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد فأبطل الخطبة في الجامع الأزهر، وأمر بالخطبة في جامع الحاكم، وكانت الجمعة تقام في مساجد مصر والقاهرة على أيام الفاطميين، في جامع عمرو وابن طولون والأزهر ثم عندما بنى الحاكم المسجد الحاكمي انتقلت الخطبة إليه[3].

وظلت الخطبة معطلة بالأزهر مائة عام وذلك منذ أن تولى صلاح الدين الأيوبي السلطنة في مصر حتى تولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر[4].

وعلى الرغم من تعطل الصلاة بالجامع الأزهر، وعدم اهتمام الأيوبيين به، فقد ظل مدرسة علمية تقام فيها حلقات الدروس، ويفد إليه العلماء يتناوبون التدريس والقراءة والإملاء في فروع العلوم المختلفة.

وظلت مساجد القاهرة مركز إشعاع للفكر والحضارة الإسلامية على مر العصور، واهتم الحكام والخلفاء والأمراء بها، وأوقفوا عليها الأراضي والأموال والضياع.

لقد عاشت المساجد الإسلامية تاريخ الأمة، معبرة عن تطورات العقلية الإسلامية، وعن حضارة المسلمين، وفي مدارسهم وجامعاتهم صقلت التجربة الإنسانية، وأبدعت العقول فيما أخرجت للدنيا من علم نفيس نافع، وفي مساجد المسلمين ألفت عيون

---

(١) المقريزي: الخطط. جـ ٢ ص ٣٤١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) انظر المقريزي: الخطط جـ ٢، ص ص ٢٧٥ – ٢٧٦ وانظر د. سيدة الكاشف. في (تاريخ المدارس في مصر الإسلامية) بحث بعنوان: الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية ص ص ٥٨ – ٥٩.

(٤) حسين أمين: رسالة المسجد. مجلة كلية الآداب عدد ٢٢ عام ١٩٦٨ ص ٣٥.

الكتب وأمهاتها، ففى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ألف مالك بن أنس كتاب الموطأ، وفى المسجد العتيق بالفسطاط ألف الإمام الشافعى كتاب الأم، وفى المسجد الأقصى بالقدس كتب الإمام الغزالى جزءًا من كتابه إحياء علوم الدين.

لقد أدت المساجد الإسلامية فى القاهرة ودمشق وبغداد، فى إستانبول، والقيروان، وسمرقند وبخارى والأندلس رسالتها العلمية، وأجيز العديد من علماء المسلمين، وأسهمت فى تعليم الأجيال من فقهاء ومحدثين ومفسرين، كما أسهمت فى نشر الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية، وظلت مراكز إشعاع فكرى وحضارى تضىء للأمة طريقها، وتحمى قيمها ومبادئها، وتحرس لها أخلاقها بما يتعلم الناس فيها من مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة.

## المدارس:

على الرغم من قول المقريزى بأن المدارس مما حدث فى الإسلام وأنها لم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة. فإننا نستطيع أن نقرر أن مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة كان أول مدرسة جامعة فى الإسلام، وإن لم يأخذ النمط أو الأسلوب الذى ظهرت عليه مدارس المسلمين بعد القرن الرابع الهجرى، لكن الفكرة الأساسية كان منبعها مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة، ثم فى مساجد الكوفة والبصرة والفسطاط، والقطائع، والعسكر والقيروان وغيرها[1].

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المدارس إنما نشأت وزاد الاهتمام بها لمواجهة الفكر الشيعى الذى انتشر فى مساجد الفاطميين فى مصر ودور العلم، ودور الحكمة ومجالس القصر، ولإعداد رجال يستطيعون العمل فى مجال الدعوة للتصدى للأفكار الخارجة على الدين، إلا إننا نرى أن المدارس فى نشأتها الأولى، وحتى بعد أن اتخذت شكلا رسميا فى الدولة، وشكلا تأسيسًا له مهام معينة، ذلك أن هذه المدارس إنما قامت لتعليم علوم المسلمين من فقه وسنة وحديث، بالإضافة إلى أفرع العلوم

(١) قارن أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها. جـ ٢ ص ٤٩.

الأخرى التجريبية والنظرية، وإن كانت فكرة التصدى للفكر الشيعى غير مستبعدة، لكنها لم تكن الأساس الأول الذى من أجله توسع المسلمون فى إقامة مدارسهم.

إن مدارس مصر التى أنشئت فى العصر الأيوبى كانت فى الوقت نفسه مساجد تؤدى فى معظمها صلاة الجمعة. وقد أنشئ عدد كبير من هذه المدارس خلال العصر الأيوبى فى القاهرة والإسكندرية والفسطاط، كما كان بمصر فى عصر الفاطميين عدد من المدارس فى القاهرة والإسكندرية من بينها مسجد سيدى معاذ الذى كان أصله مدرسة بنيت على مشهد الشريف معاذ بن داود[1].

كذلك كانت هناك المدرسة المسرورية التى بناها مسرور الخادم[2]، أما الإسكندرية فكان بها المدرسة التى أنشأها الوزير رضوان الولخشى فى ٥٤٢ هـ/ ١١٣٨ م وكانت تعرف بالمدرسة العونية وخصصت لتدريس المذهب الشافعى، هذا بالإضافة إلى مدرسة أخرى بناها على بن سلار فى عهد الخليفة الظافر وكانت تعرف بالمدرسة السلفية أو المدرسة الحافظية نسبة إلى الحافظ السلفى فقيه الإسكندرية وكانت للمذهب الشافعى.

ويحفظ لنا صبح الأعشى نسخة سجل تدريس من إنشاءات القاضى الفاضل، تعود إلى عهد الخليفة الفاطمى الظافر وهو يخص المدرسة الحافظية وفيه: ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية حماه الله تعالى على غيره من الثغور، فإنه خليق بعناية تامة لا تزال عنده وتقدر، لأنه من أرقى الحصون والمعاقل، والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل وهو يشتمل على القراء والفقهاء، والمرابطين والعلماء، وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه، والطارئين عليه، مشتتو الشمل، متفرقوا الجمع أبى أمير المؤمنين أن يكونوا صائرين مقلدين، ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة، منًا عليهم وإنعامًا، ومستقرا لهم ومقاما، ومثوى لجميعهم ووطنا، ومحلا لكافتهم وسكنا، فجدد السيد الأجل أدام الله قدرته الرغبة إلى أمير

---

(١) د. أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ص ٤٩، ٥٠.

(٢) قارون المقريزى: الخطط ص ٣٧٨ حيث يقول: إن داره جعلت مدرسة بعد وفاته.

المؤمنين فى أن يكون ما ينصرف إلى مئونة كل منهم، والقيام بأوده وإعانته على سبيله وبصدده: من عين وغلة، مطلقا من ديوانه، واسترفد أمير المؤمنين التقدمة فى ذلك فأجابه جريا على عادة إحسانه، واستقرت المثوبة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر: لنفاذك واطلاعك، وقوتك فى الفقه واستضلاعك، ولأنك الصدر فى علوم الشريعة، والحال منها فى المنزلة الرفيعة، والمشتغل الذى اجتمع له الأصول والفروع، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقى، وأن مجاريك لا يكون إلا ناكصا على عقبه مخفقا، وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ما علمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين، وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شدا لأزرك وتقوية لأمرك، ورفعا لذكرك»[1].

وأوصى بالعناية والرعاية للمدرسة وطلابها وإعزازهم، والاهتمام بمصالحهم، كما أمر بأن يتلى المنشور على الكافة بالمسجد الجامع، كما أمر أن يخلد بها حجة بما تضمنه المنشور.

وبهذا نستطيع أن نقرر وجود المدارس فى العصر الفاطمى وإن كان القلقشندى يذكر أنها كانت قليلة الوجود أو تكاد تكون معدومة[2].

ويذكر المقريزى: إن المدارس بالمعنى المتداول لاصطلاح مدرسة كان مما حدث فى الإسلام، وكان أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة فى الإسلام، حيث أقاموا المدرسة البيهقية، وبنى الأمير نصر الدين بن سبكتكين مدرسة، وبنى أخوه السلطان محمود ابن سبكتكين الغزنوى مدرسة، ثم أنشئت أيضًا المدرسة السعيدية[3].

وأشهر المدارس التى عرفت فى المشرق هى المدرسة النظامية فى بغداد التى بناها الوزير السلجوقى نظام الملك، وكانت بداية إنشائها عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤ م، وانتهى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٩.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٢.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣، وانظر أيمن فؤاد سيد: المدارس فى مصر الإسلامية ص ٩٤.

العمل فيها فى ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م، وقد درس بها الشيخ أبو إسحق الشيرازى الفيروز أبادى صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى.

وقد تعددت النظاميات وانتشـر بناؤها فبلغت تسعا فى: الموصل، والبصرة، وآمل وطبرستان وهراة وبلخ ومرو ونيسابور.

وانتشرت المدارس أيضا فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر. ثم انتقل هذا التقليد إلى بلاد الشام على أيدى الزنكيين فقد أقام نور الدين محمود المدارس، وشهدت مدن الشام نشاطًا علميًا ملحوظًا فى مدارس دمشق وحمص وحلب وحماة وبعلبك، ويمكن القول أن هذه المدارس بالإضافة إلى سياسـة نور الدين محمود فى دعم السـنة قد قامت بدور هام فى تطبيق الخطة الإسـلامية فى مواجهة الصليبيين، كما تجدر الإشـارة أن فقهاء الشافعية الذين أنيط بهم التدريس فى معظم مدارس الشام كان لهم دور مشهود فى هذه الإستراتيجية.

أنشـأ الأيوبيون المدارس فى مصر، وقد ذكر المقريزى سـتا وعشرين مدرسة كانت لاتزال قائمة فى عصره، أهمها المدرسة الناصرية التى أقامها صلاح الدين عندما كان وزيـرًا للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر، وكانت بجوار مسـجد عمرو، وقد عرفت باسم المدرسة الشريفية، ومدرسة ابن زين التجار وكانت أول مدرسة عملت فى مصر وكانت برسم الشافعية[1].

ثم أقام صلاح الدين أيضًا المدرسـة القمحية وكانت لفقهاء المالكية، وتوالى إنشاء المدارس فى العصر الأيوبى فكانت المدرسـة القطبية والمدرسـة السـيوفية وهى أول مدرسة للحنفية فى مصر، ومدرسة يازكوج، ومدرسة منازل العز، ومدرسة العادل، ومدرسة ابن رشـيق والمدرسة الفائزية، ومدرسة ابن الأرسـوفى والمدرسة الفاضلية التـى بناها القاضى الفاضل بجـوار داره عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٣ م ووقفها على الفقهاء الشـافعية والمالكيـة وجعل فيها قاعـة للإقراء. وقد قرأ بها الإمام الشـاطبى ناظم الشـاطبية، ثـم تلميذه أبـو عبد الله بن عمر القرطبى ثم الشـيخ على بن موسـى الدهان وغيرهم.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢، ص ٣٦٣.

وقام على تدريس فقه المذهبين الشافعى والمالكى الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن ابن سلامة الإسكندرانى. وبلغت عناية القاضى الفاضل بهذه المدرسة أنه أوقف عليها خزانة كتب نفيسة ضمت أمهات الكتب الأصول، وكان من بين تلك الكتب مصحف يعتقدونه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وأنشئت أيضًا المدرسة الأزكشية وهى التى بناها الأمير سيف الدين يازكوج مملوك أسد الدين شركوه وأحد أمراء صلاح الدين. وقد كانت هذه المدرسة وقفا على فقهاء الأحناف.

أما المدرسة الفخرية فقد بناها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل الياروقى الذى كان يشغل منصب إستادار الملك الكامل الأيوبى وكان الفراغ من بنائها عام ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م ولم يذكر لنا المقريزى أى المذاهب كانت تدرس فى هذه المدرسة، ويبدو أنها كانت لتدريس المذهب الشافعى.

أما المدرسة السيفية نسبة إلى سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وتولى فيها عماد الدين بن القاضى صدر الدين بن درباس الذى أفتى بألا يجوز أن تكون فى القاهرة خطبتان للجمعة، ومن ثم أوقفت خطبة الجمعة فى الأزهر واكتفى بواحدة فى مسجد الحاكم.

ومن المدارس التى شهدها العصر الأيوبى المدرسة العاشورية نسبة إلى السيدة عاشوراء زوجة الأمير يازكوج الأسدى الذى بنى المدرسة الأزكشية. وقد أوقفت هذه المدرسة على فقهاء الحنفية.

وتوالى إنشاء المدارس فأقيمت المدرسة الخروبية وهى من ألطف المدارس كما يقول المقريزى، وقد ذكر المقريزى ثلاث خروبيات: الأولى عندما ذكر الخروبية التى بناها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى، وكان بها مدرس للحديث فقط. أما الخروبية الثانية فهى التى بناها كبير الخرازية بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى، وفيها درّس كبار العلماء المصريين مثل مدرس الفقه الشيخ عبد الرحمن بن عقيل، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى. ومن الطريف الإشارة إلى أن بدر الدين صاحب تلك المدرسة قد اشترط فى مدرسته

ألا يلـى بهـا أحد من العجم وظيفة من الوظائف، وقصر الوظائف فيها على العرب.
أما الثالثة فهى المدرسـة الخروبية التـى بناها عز الدين الخروبى، ولكنه توفى قبل أن يستكمل بناءها.

ومن أشـهر المدارس المدرسـة الصاحبية البهائية التى بناها الوزير الصاحب بهاء الدين بن محمد سليم بن رضا فى عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م وكان الظاهر بيبرس قد استوزره عام ٦٥٩ هـ/ ١٢٥٨ م لكفايته ودرايته ونهضته.

وأول مـن تولى التدريس بهـا الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين ثم تولى من بعده ابنه محيى الدين أحمد بن محمد ثم توارثها أبناؤهم.

وظلت هذه المدرسة قائمة حتى عصر الملك الناصر فرج بن برقوق فأخذ العمد الرخام وكانت كثيرة العدد واستبدلها بدعائم تحمل السقوف، لاستخدام تلك العمد فى عمارة البيمارستان المنصورى.

وعندما تولى الملك المؤيد شـيخ وعهد بوظائف ولاية القاهرة والحسـبة وشد العمائر السلطانية إلى الأمير تاج الدين الشوبكى الدمشقى أمر بهدم تلك المدرسة وذلك فى عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤ م.

ويصفهـا المقريزى بأنها كانت مـن أجلّ مدارس الدنيا، بـل إنها كانت أعظم المدارس بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ويتشـاحنون فى سـكن بيوتهـا حيث كان البيت الواحد من بيوتها يسـكنه اثنان أو ثلاثة من طلبة العلم ثم تلاشى أمرها[1].

والحقيقة أن المقريزى قد قدم للدارسين خدمة عظيمة حين دون معلومات قيمة عن مـدارس القاهرة فى العصرين الأيوبى والمملوكـى، فعدد الكثير من المدارس من أهمها الصاحبية، والشريفية، والصالحية والكاملية وهى التى تعرف بدار الحديث الكاملية أنشـأها السلطان الكامل الأيوبى عام ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م وهى ثانى دار للحديث حيث كانت الأولى هى التى أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى دمشق[2].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧١.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٥.

وقد أوقف الملك الكامل دار الحديث على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على فقهاء الشافعية، وكان أول من تولى التدريس بالكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر ابن على بن دحية، واستمرت هذه الدار حتى تلاشت بعد عام ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م.

ويشير المقريزى أيضا إلى المدرسة الصيرمية نسبة إلى الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم، والمدرسة المسرورية بالقاهرة والمدرسة القوصية نسبة إلى الأمير الكردى وإلى قوص، والمدرسة الظاهرية التى بناها الظاهر بيبرس بعد أن ابتاع أرضها، وتم الفراغ من بنائها فى ٦٦٢ هـ/ ١٢٢٥، وبمناسبة ذلك اجتمع أهل العلم والإقراء وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان، منهم الشافعية بالإيوان القبلى، ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحنفى، والحنفية بالإيوان البحرى، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم الحلبى، وأهل الحديث بالإيوان الشرقى ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى، والقراءات السبع بالإيوان الغربى وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلى.

وهذا يوضح لنا أن هذه المدرسة قد ضمت بين جنباتها أقساما لتدريس الفقه الشافعى، والفقة الحنفى، ودراسة الحديث ودراسة القراءات السبع.

واحتوت هذه المدرسة أيضًا على خزانة للكتب تشتمل على عيون المصادر فى سائر العلوم، وألحق بها مكتب لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى.

وكان نظر المدرسة بين الشافعية تارة، والحنفية تارة أخرى. ونحن هنا أمام نظام جامعى رفيع، مدرسة فكرية بمعنى الكلمة School of Thought، تضم الأساتذة الأجلاء فى كل تخصص ثم تضم الطلاب الذين يتخصصون فى العلوم التى يريدونها، ثم تحدثنا المصادر عن إدارة هذه المدرسة، وكيف اهتم أولو الأمر بها، حتى غدت من أجلّ مدارس القاهرة، وأما المدرسة المنصورية فهى التى أنشأها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى. وقد رتب فيها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، وتمتاز هذه المدرسة عن غيرها بأن رتب فيها درسًا للطب.

وأنشأ قلاوون أيضًا القبة المنصورية تجاه المدرسة، وفيها رتب درسا للحديث النبوى، ودرسًا لتفسير القرآن الكريم، كما شهدت أيضًا دروسًا للفقه على المذاهب الأربعة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد رتب بهذه القبة قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طوال الليل وطوال النهار، وكان بها إمام راتب يصلى بالقراء والخدم وغيرهم الصلوات الخمس، كما كان بها خزانة للكتب فى شتى أنواع العلوم وقفها الملك المنصور عليها.

وقرر السلطان فى القبة خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ورتب بها إماما راتبا، جعل بها رئيسا للمؤذنين، ورتب فيها درسا لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدون وثلاثون طالبا، وعين بها ستة خدام طواشية.

وشهدت هذه القبة تقليدًا خاصًا منذ عصر المعز أيبك، إذ أُمر أحد من أمراء مصر والشام فإنه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وتوقد له القاهرة فى موكب يمر فى شوارعها إلى القبة المنصورية حيث يحلف اليمين، ويحضر تحليفه صاحب الحجاب، إلا أن هذا التقليد بطل منذ انتهت دولة قلاوون.

ومن المدارس الهامة المدرسة الحجازية، وقد أنشأتها ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خوند تتر الحجازية، ورتبت بها درسا للفقهاء الشافعية، ودروسا للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبرًا لخطبة الجمعة، ورتبت بها إماما ليؤم المسلمين فى الصلوات الخمس.

وأقامت بجوارها مكتبا للسبيل فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، وأجرت عليهم فى كل يوم لكل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغا من الفلوس، وفرضت لهم كسوة فى الشتاء والصيف. وأما نظر هذه المدرسة فكان لا يوكل إلا للأمراء الكبار.

وهكذا تعددت وتنوعت المدارس، وأصبحت نظاما من الأنظمة الإسلامية وتخرج فيها العديد من العلماء المرموقين ممن أسهموا بدور عظيم فى إثراء الحياة الثقافية فى مصر هذه المرحلة.

والمدرسة هى المؤسسة الإسلامية التى حدد لها مكان يتلقى فيه طلاب العلم على شيوخ متخصصين، ويتوفر فيه مكان لسكنى الطلاب والشيوخ المدرسين، وأن تجرى لهم الأرزاق وهى مرتباتهم التى بها تستقيم أمورهم الحياتية حتى يتفرغ الشيوخ للتدريس والطلاب للدرس.

## الإجازة العلمية :

الإجازة العلمية من التقاليد العلمية التى بدأت وتطورت بين يدى علماء المسلمين، وقد واكبت اهتمامهم بالعلم ومريديه وطلابه الذين كان على عاتقهم حمل الأمانة وتوصيلها للأجيال التالية.

والإجازة مصدر للفعل أجاز، ويقول صاحب اللسان: أجازه بمعنى خلق ونطق، وأجازه أنفذه، ويقال: أجاز رأيه وجوزه أنفذه[1].

وتذكر المصادر أن طالب العلم يسأل العالم أن يجيز علمه فيجيزه أياه، فالطالب مستجيز، والعالم مجيز.

والإجازة تعود فى أصلها ونشأتها إلى رجال الحديث يضعونها فى المرتبة الأول فى تحمل الحديث، وانتقل هذا التقليد إلى بقية العلوم وأصبحت دليلا ومسوغا على قدرة المجاز وتحمله مسئولية العمل بإجازته. والإجازة تكتب بأساليب مختلفة، وفيها ينوه بكفاءة صاحبها ومقدرته العلمية. ولما كانت الإجازة العلمية إذنا بالتدريس فلابد من أن تتضمن اسم الشيخ الذى منحها، والكتب التى أجاز الطالب فيها.

يقول القلقشندى: جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس، ويكتب له بذلك. والإجازة تكون بالفتيا والتدريس والرواية وعرضات الكتب وغير ذلك[2].

وقد حفظ لنا القلقشندى نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى منحت له حين أجازه الشيخ العلامة سراج الدين أبو حفص عمرو بن أبى الحسين الشهير بابن الملقن وذلك فى عام ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م وأضاف: أن القاضى تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية كتب له بذلك[3].

وتنص على:

١ – أذن وأجاز لفلان (أبو العباس القلقشندى) المسمى فيه أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق الربانى، أبى عبد الله محمد بن إدريس المطلبى الشافعى.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب. مادة نفذ.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ١٤ ص ٣٢٢.

(٣) انظر نص الإجازة فى صبح الأعشى: جـ ١٤ ص ص ٣٢٣ وما بعدها.

٢ – أن يقرأ من الكتب المصنفة فيه (أى فى المذهب) وأن يفيد طالبيه.
٣ – أن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا على مقتضى المذهب الشافعى.
٤ – وذلك لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته.

وتشمل الإجازة كذلك وما أجاز به ابن الملقن أبا العباس القلقشندى من أنه قد أجاز له: أن يروى عنه من مصنفاته ومنها جامع الجوامع، وشرح صحيح الإمام البخارى، ومنها البدر المنير فى تخريج الأحاديث والآثار الواردة فى الشرح الكبير للإمام أبى القاسم الرافعى.

كما أجاز له أن يروى عنه ما أجيز له عنه بشرطه عند أهله ومنها الكتب الستة: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، والمسانيد: مسند ابن حنبل، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم.

أما الإجازة بعراضة الكتب، فقد كانت تمنح للطلاب الذين يحفظون كتبا فى الفقه، أو أصول الفقه أو النحو فيعرضون ما يقرأون على مشايخ العصر، الذين يقومون بدورهم باختبار كفاءة هؤلاء فإن تيقن الشيخ من إتقان الطالب لما حفظ ودرس أجازه وإلا حجب عنه تلك الإجازة.

وجاءت بعض تلك الإجازت على النحو التالى: «وبعد، فقد عرض علىّ فلان مواضع من كتاب كذا وكذا فمر فيها مرور الصبا، وجرى فى ميدانها جرى الجواد ما حاد على سنن الطريق ولاكبا.

وإلى جانب ذلك هناك الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات، وهى أن يطلب واحد من العلماء إلى أحد الشيوخ المشهود لهم بالعلم أن يجيزه، ومن ذلك ما كتب صلاح الدين الصفدى إلى القاضى شهاب الدين أحمد الحنبلى يطلب الإجازة فى البلاغة وإتقان صناعة الإنشاء فكتب له بذلك[1].

وهناك الإجازة فى الحديث، والإجازة فى القراءات، والإجازة فى موضوع واحد مثل إجازة السلطان الأشرف فى صناعة الاصطرلابات وذلك ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢ م وقد أجازه الشيخ حسن بن على الفهرى المظفرى الأشرفى.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ١٤ ص ٣٣٢.

## البيمارستانات:

أنشئت البيمارستانات أساسا للعلاج والتداوى، فقد عرف المسلمون الطب الإكلينكى، وطب البحوث، وظهر الأطباء المتخصصون الذين ذاع صيتهم، وظهرت مهاراتهم، وتأكدت كفاءاتهم فى هذا المجال، ومع ذلك فمن الممكن أن نعد البيمارستانات مؤسسات علمية على غرار كليات الطب أو مستشفياتها التعليمية، فقد كانت الدروس تعقد بها، ويقوم عليها أطباء أكفاء متخصصون، والبيمارستان معرب يعنى بيت المرضى وربما كان أبقراط أول من فكر فى إنشاء البيمارستان، أما إنشاء البيمارستان فى الإسلام فيعود إلى عصر الوليد بن عبد الملك الذى يعد أول من أقام بيمارستانا فى عام ٨٨ هـ/ ٧٠٦ م، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين وعزلهم حتى لا تنتشر العدوى[1]. ويذكر المقريزى: أن أحد ملوك القبط فى مصر هو أول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى، وزودها بالعقاقير ورتب فيها الأطباء وأجرى عليهم ما يسعهم[2].

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أول من وضع بيمارستانا فى مصر هو أحمد ابن طولون، ويذكر الكندى: أن ذلك كان فى عام ٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م بينما يقول البلوى: أنه كان فى عام ٢٦١ هـ/ ٨٧٤. وقد أوقف أحمد بن طولون على البيمارستان وقوفا للإنفاق من دخلها عليه، ووضع شروطا للعلاج داخل البيمارستان، فهو للعامة ولا يعالج فيه جندى ولا مملوك وألحق به حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء.

إن نشأة البيمارستان كمؤسسة طبية صحية تعليمية، ووضع اللوائح والتنظيمات لإدارته تقدم الدليل على أن المسلمين استطاعوا أن يحققوا درجة عالية فى التنظيم والإدارة تتساوى مع ما نراه فى كثير من المستشفيات والمؤسسات العلاجية فى عصرنا الحديث.

تروى لنا المصادر أن أحمد بن طولون وضع نظاما لائحيا للبيمارستان، وتشمل خطوات معاملة المريض منذ دخوله البيمارستان حتى يتعافى للشفاء ويغادر البيمارستان.

---

(١) تعود فكرة التداوى وعزل المرضى بأمراض معدية إلى العصر النبوى، فقد حدث بذلك رسول الله ﷺ، وطبقه، وطبقه المسلمون من بعده.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٠٥.

فعندما يحل المريض البيمارستان تنزع ثيابه، ويحرز ما معه من أشياء وتحفظ عند أمين البيمارستان ويلبس ثيابا خاصة بالبيمارستان، ويفرش له، ويغدى ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ.

ومن أشهر البيمارستانات الإسلامية البيمارستان النورى الذى أمر ببنائه الملك العادل نور الدين محمود الذى كان مركزا علميا، فيذكر ابن أبى أصيبعة أن الطبيب أبا المجد بن أبى الحكم كان يأتى إلى البيمارستان النورى ويجلس بالإيوان الذى بالبيمارستان، وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين فيه يأتون إليه، ويقعدون بين يديه يدرس لهم الطب وتجرى بينهم المناقشات العلمية، وكان يخصص لذلك ثلاث ساعات فى كل مجلس. كذلك منها مارستان كافور، ومارستان المغافر، والمارستان العتيق والمارستان المؤيدى. أما البيمارستان الكبير المنصورى فكان أهمها جميعا، وهو الذى شيده الملك المنصور قلاوون، الذى كان يشرف بنفسه على البناء.

وعندما انتهت عمارته وقف السلطان عليه من ممتلكاته ما يقرب من ألف ألف درهم، ورتب مصارف البيمارستان، وفتحه للجميع الجندى والمملوك والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث، كما رتب فيه العقاقير والأطباء، والفراشين لخدمة المرضى، وقرر المعاليم ونصب الأسرة، وفرشها بكل ما يحتاجه المريض.

وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا، أى إنه قسم البيمارستان إلى أقسام فجعل قسما للرمد، وقسما للحميات وقسما للجرحى، وقسما للباطنة وقسما للنساء وجعل الماء يجرى فى جميع الأماكن، وزوده بمطابخ للطعام والأدوية والأشربة، وخصص قسما لتركيب المعاجين والأكحال.

وجعل بالبيمارستان مكانا خُصص لرئيس الأطباء يجلس فيه لإلقاء دروس الطب، واختص السلطان نفسه طول حياته بنظر الديوان، وجعله فى أبنائه من بعده، ثم لأولادهم من بعدهم، واشترط أن يكون بعد ذلك لحاكم المسلمين الشافعى أى شافعى المذهب.

ويحدثنا المقريزى أن الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك تولى نظر المارستان المنصورى، وأدخل عليه عدة تحسينات من ماله الخاص وأضاف إليه قاعة خصصت للمرضى.

وشـهدت مصر أيضا نشـأة البيمارسـتان المؤيدى وذلك فى عام ٨٢١هـ/ ٤١٨م واسـتغرق بناؤه حتى عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، ولكن لم يسـتمر فى عمله سـوى عام واحد تحول بعده إلى دار لاسـتقبال الرسـل الواردين للسلطان، ثم تحول بعد ذلك إلى جامع رتب له خطيب وإمام ومؤذن، وأقيم به منبر وخطبت به الجمعة لأول مرة عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م.

إن إنشـاء البيمارستانات يعد خطوة هامة فى تطور التعليم عند المسلمين، وتطوره فى مصر كما يعد نموذجا تطبيقيا يؤكد على عناية الدولة بصحة رعاياها، كما أنه من اللافت للنظر تطور الإدارة الإسـلامية فيما يختص بالشـئون الداخلية وانسحابا على إدارة البيمارستان المنصورى ليقدم دليلا على كيفية إدارة البيمارستانات الإسلامية.

كان للبيمارسـتان ناظـر يتولى النظر العام لشـئونه وأحواله وله مسـاعدون فعلى الجانب الإدارى كان معه أمين البيمارسـتان ومباشـر البيمارستان، ومباشر للمطبخ، ومباشر لعمارة أوقاف البيمارستان، ومباشر لاستخراج مال الوقف الخاص به.

وعلـى الجانب الطبى كان هناك كبير الأطباء يسـاعده الأطبـاء المتخصصون فى التخصصات الطبية المختلفة كالجراحة والحميات والرمد، والباطنية والنسـاء وغيرها يتناوب الأطباء فى رعاية المرضى فى أيام العطلات، فكان هناك الطبيب المناوب الذى يقوم بالعمل أيام الجمعة من كل أسـبوع لاسـتقبال حالات الطوارئ التى قد تحدث خلال تلك الأيام.

وضم البيمارسـتان أقساما متخصصة، وزود بخزانة للشراب هى الصيدلية. وألحق به أيضا قسم تركب فيه الأدوية وتصنع المعاجين والأكحال، كما خصص مكان لتوزيع الأدوية على المرضى.

وتأكيدا على أن البيمارسـتان كان مؤسسـة تعليميـة زود بخزانة للكتب تضم نفائس الأعمـال والمؤلفـات فى الطب وغيرها لمن يريد من طلاب الطـب أن يتزود بالعلم الدقيق المتخصص، والبيمارسـتان المنصورى كان مستشـفى تعليميا إذ تؤكـد المصادر أن رئيس الأطباء، كان يجلس ليلقى دروسـا فى الطب مما يدل على أن البيمارستان يستقبل طلبة الطب ليدرسوه ويتعلموه على أيدى أطباء البيمارستان المنصورى.

وكان للبيمارستان ميزانية خاصة به، مصدرها الأوقاف التى أوقفت عليه، بالإضافة إلى مصروف يومى بلغ خمسمائة رطل من مختلف الأطعمة هذا سوى السكر الذى كان يخصص يوميا للبيمارستان.

## إدارة البيمارستانات :

وضع المسلمون نظاما لإدارة البيمارستان يمكننا أن نستنبط منه كيف كانت إدارة البيمارستان المنصورى، تلك الإدارة التى تنبىء عن فهم واضح لما يجب أن يكون عليه التنظيم الداخلى للبيمارستان باعتباره مؤسسة طبية للتداوى، ومؤسسة تعليمية لتدريس الطب وتخريج الأطباء.

كان للبيمارستان المنصورى رئيس للأطباء يساعده عدد من الأطباء المتخصصين وعدد من الموظفين الإداريين ومنهم أمين البيمارستان، ومباشرون للإدارة والمطبخ والعمارة بالإضافة إلى المشرفين على خزانة الشراب، الذين لابد أن يكونوا متخصصين فى الصيدلة وتركيب الأدوية، وفى الجدول التالى يتضح لنا الهيكل الإدارى للبيمارستان.

| الهيكل الإدارى الطبى | الهيكل الإدارى المعاون |
|---|---|
| ١ – رئيس الأطباء. | ١ – أمين البيمارستان. |
| ٢ – الأطباء المتخصصون. | ٢ – المباشر (مباشر البيمارستان). |
| ٣ – الطبيب المناوب. | ٣ – مباشر الإدارة. |
| | ٤ – مباشر المطبخ. |
| | ٥ – مباشر العمارة. |
| | ٦ – مباشر استخراج الوقف. |

## دور العلم وبيوت الحكمة :

كانت دور العلم وبيوت الحكمة مراكز للإشعاع الثقافى والنشاط الفكرى فى العالم الإسلامى سواء فى بغداد أم فى القاهرة. وقد قامت هذه المؤسسات جنبا إلى جانب مع الجامعات الإسلامية الكبرى فى حواضر الإسلام، ولاقت عناية الخلفاء الذين أنفقوا على إدارتها وإمدادها بنفائس الكتب والأموال الطائلة.

وكان هارون الرشيد قد أنشأ ببغداد دار الحكمة ورتب فيها المترجمين ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحق وابن البطريق وثابت بن قرة وقسطا بن لوقا. وأنفق الرشيد ومن بعده خلفاء بنى العباس – وبصفة خاصة المأمون – بسخاء على بيت الحكمة ببغداد، ووضعوا علماءها فى مكانة مرموقة.

وكان سهل بن هارون كاتبا لخزانة الكتب الملحقة ببيت الحكمة، تلك المكتبة التى صنفت فيها الكتب وفق الموضوعات، واختير لها المترجمون الذين عرفوا بمهاراتهم وكفاءتهم فى الترجمة بالإضافة إلى درايتهم وإتقانهم للغات العربية واليونانية وغيرها، ومن المهم الإشارة إلى أن المترجم كان يتقاضى خمسمائة دينار كل شهر.

ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر: «يعتبر بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الإسلامى، بل يمكن القول أنها أول جمعية علمية أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدراسة، ويلجأ إليها الطلاب فكانت بذلك مركزا علميا شمل العلوم المختلفة كالطب والفلسفة وغيرهما».

وضمت خزانة الكتب فى بيت الحكمة فى بغداد كتبا ألفت أصلا باللغات القديمة، فيذكر العالم الطيب ابن أبى أصيبعة أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة التى حصلوا عليها من بلاد الروم وعمورية، كما كانت العلاقات الطيبة التى ربطت الدولة العباسية بجيرانها فى كثير من الأحيان سببا فى إهداء الملوك المجاورين لها الكتب لخلفائها، ومن ذلك ما أهداه صاحب جزيرة قبرص إلى خزانة بيت الحكمة، كما جاءت الكتب من القسطنطينية إلى المأمون هدية من الإمبراطور البيزنطى.

ونستطيع أن نقول: إن إنشاء بيت الحكمة والاهتمام البالغ الذى حظيت به يدل على سمة من سمات الرفاهية والثراء اللذين عرفهما العالم الإسلامى، إضافة إلى ظهور بعض الخلفاء الذين أحبوا العلم، فالرشيد كان واسع الثقافة جمع حوله صفوة العلماء والأدباء والمترجمين والحكماء والفلاسفة، كما كان المأمون عالما اختار رجال دولته من الصفوة من رجال العلم والأدب والشعراء الذين استدعاهم إليه وأولاهم رعاية فائقة.

وقد تحول بيت الحكمة فى عهد المأمون إلى معهد علمى بل يمكننا القول: إنه تحول إلى جامعة ذاع صيتها، بالإضافة إلى مكتبته الثرية التى احتوت على مرصد مجهز بالأجهزة العلمية.

وفى هذا الصدد نذكر ما أورده المستشرق نيكلسون Nicholson: أن الغرب مدين بلاشك لأعمال وجهود العلماء المسلمين باعتبار أن لهم السبق فى كثير من مجالات العلم والفلسفة، ولأنهم كانوا حملة المشاعل على طريق المعرفة التى أضاءت لأوروبا طريقها نحو النهضة والتقدم[1].

## دار الحكمة: (٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م):

يقول المقريزى: قال الأمير المختار عز الدين محمد بن عبد الله المسبحى: «وفى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وجمعت إليها الكتب من خزائن الكتب المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها، وكذلك من رأى قراءة شىء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون، وأصحاب النحو واللغة والأطباء»[2].

ويضيف المقريزى وصفا تفصيليا لدار الحكمة ومدى عناية الحاكم بأمر الله الفاطمى بها فقد أمر بأن تفرش وتزخرف، وعلقت الستائر على أبوابها وممراتها، وعين قواما وخدما وفراشين وغيرهم كلفوا بالخدمة فيها. كما أمر بأن تحمل إليها من خزائنه من الكتب فى سائر العلوم والآداب ما لم ير مجتمعا لأحد قط من الملوك وأباح ذلك لسائر الناس.

وأجرى الحاكم الأرزاق على من يجلس أو يخدم فيها من الفقهاء وغيرهم، فكان لمن يحضر للتعلم أو لقراءة الكتب أو للنسخ منها رزق جار، وأمدها بما يحتاج إليه روادها من الحبر والأقلام والورق والمحابر.

وقد عرفت هذه الدار بدار العلم وبدار مختار الصقلبى وتقع بجوار القصر الغربى من جهته الشمالية ويدخل إليها من درب التبانين[3].

---

(1) Nicholson, Literary History of the Arabs., P. 359.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ١. ص ٤٥٨.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ص ٤٥٨ – ٤٥٩.

بينما يقول القلقشندى: يوجد بجوار القصر دار تعرف بدار العلم خلف خان مسرور، كان داعى الشيعة يجلس فيها، ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم، وجعل الحاكم لها جزءًا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر، وجامع المقس، وجامع راشدة، ثم أبطل الأفضل ابن أمير الجيوش هذا الدار لاجتماع الناس فيها والخوض فى المذاهب خوفا من الاجتماع على المذهب النزارى، ثم أعادها الآمر بواسطة خدام القصر بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا، والداعى هو الناظر فيها، ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن الكريم[1].

وجعل الحاكم بأمر الله لها جزءًا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر وجامع المقس وجامع راشدة. وقدر ذلك الوقف بالعشر وثمن العشر فى كل عام وأشهد على ذلك فى رمضان عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م وبيانه كالتالى:

( ١ ) ٢٥٧ دينار من العين المعزى.

( ٢ ) ١٠ دنانير للحصر العبدانى.

( ٣ ) ٩٠ دينارًا لورق الكاتب.

( ٤ ) ٤٨ دينارًا للخازن.

( ٥ ) ١٢ دينارًا ثمن الماء.

( ٦ ) ١٥ دينارًا للفراش.

( ٧ ) ١٢ دينارًا للورق والحبر والأقلام ومن ينظر فيها من الفقهاء.

( ٨ ) ١ دينار لمرمة الستارة.

( ٩ ) ١٢ دينارًا لمرمة وتجليد الكتب والحفاظ عليها.

(١٠) ٥ دينار للفرش فى الشتاء.

(١١) ٤ دنانير للسجاد (طنافس) فى الشتاء.

ورأس داعى الدعاة بيت الحكمة، ومن هنا يتضح لنا أنها كانت ذات طابع عقدى، وإن كانت فى بدايتها جامعة حرة سمح لعلماء السنة وعلماء الشيعة بالعمل بها إلا أن هذا الوضع لم يستمر فاضطهد علماء السنة وأصبحت قصرا على علماء الشيعة.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ص ٣٦٢: ٣٦٣.

واشتملت على قاعات الدرس بالإضافة إلى مكتبة عظيمة، نقلت إليها من كل مكان وخاصة من مكتبة القصر الفاطمى، وقد أراد الحاكم بأمر الله أن تكون دار الحكمة مركزًا ثقافيًا بل ومعهدًا علميا مستقلا عن الجامع الأزهر[1].

وكان التعليم بها حرا وعلى نفقة الدولة، وكانت دار الحكمة تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية، كما قسمت إلى عدة أقسام خصصت للعلوم المختلفة، فكان منها ما خصص لعلوم القرآن الكريم وعلوم اللغة والفقه، ومنها ما خصص للعلوم التجريبية كالطب والفلك والرياضيات.

وقد جذبت دار الحكمة عددا كبيرًا من العلماء والتلامذة، وتخرج فيها ناصرى خسرو، والحسن الصباح الذى تفقه فى الدعوة السرية مما يؤكد الصفة المذهبية لهذه الدار.

ودار الحكمة تمثل ثالث جامعة فى مصر الإسلامية تنافست مع الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص، وتجدر الإشارة إلى أنه فى الوقت الذى اختص فيه الأزهر بتدريس العلوم الدينية، اختصت دار الحكمة ومسجد عمرو بتدريس العلوم الدينية إلى جانب العلوم التطبيقية، ومن هنا يمكننا أن نقرر أن هذه المراكز الثلاثة كان تتنافس على قيادة الحركة الفكرية والعقلية فى مصر والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت.

وقد ظلت دار الحكمة مركزا للعلم والثقافة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى عانت بعد ذلك من الإهمال، وتسربت إليها الفوضى التى كانت قد شملت معظم مرافق الدولة فى عهد المستنصر أيام الشدة العظمى إلى أن انتهى الأمر بإغلاقها على يد أمير الجيوش الأفضل بن شاهنشاه عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠٥ م بسبب تدخل بعض المترددين عليها فى أمور العقيدة بشكل خاطئ.

ويقول ابن عبد الظاهر: كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطلها، وكان إبطالها لأمور سببها اجتماع الناس والخوض فى المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب النزارى[2].

---

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٦٠، ويبدو أن النص إلى نهايته فى المقريزى هو ما اعتمد عليه ونقله القلقشندى. قارن: صبح الأعشى: جـ ٣ ص ٣٦٢.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٤٤٥، وانظر محمد عبد الله عنان. تاريخ الجامع الأزهر، ص ٥٨.

ومـع ذلك فقـد كانت دار الحكمة جامعة لها دورها الثقافـى والعلمى فى القاهرة، تنافست مع المراكز العلمية والثقافية الأخرى وفى مقدمتها الجامع الأزهر، والدليل على ذلك أن إغلاقها كان له أكبر الأثر فى ازدهار الحركة الفكرية فيه وذلك بانتقال العلوم التى كانت تدرس بها إليه وخاصة العلوم التجريبية كالطب والفلك والرياضيات والطبيعة.

## دار العلم الجديدة :

يقول المقريزى: لما أغلق الأفضل بن أمير الجيوش دار العلم التى كان الحاكم بأمر الله فتحهـا فـى باب التباين اقتضـى الحال بعد مدة إعادة دار العلـم فامتنع الوزير المأمون من إعادتها فى موضعها فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع أى بجوار القصر الشـرقى الكبير، فعمل دار العلم فى شـهر ربيع الأول ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م وولاها لأبى محمد حسـن بن آدم واسـتخدم فيها مقرئين، ولم تزل دار العلـم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية. ويذكر المقريزى أيضًا أن الذى بناها جمال الدين الأسـتادار الحلبى، وغـرم عليهـا مائة ألف وأكثر من ذلك. وموضع دار العلـم هذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر قريبًا من خان الخليلى بخط الزراكشة العتيق[1].

## المكتبات وخزائن الكتب :

يروى المسـبحى أخبار خزائن الكتب الفاطمية، ويقـول: إن جملة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، وإن جملة الكتب فى واحدة من تلك الخزائن بلغ ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة[2].

ويـروى العماد الكاتب الاصفهانى أنه أخذ جملة من خزانة بالقصر وذلك فى عام ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م وكانت خزائنها مشـتملة على قريب من مائة وعشرين ألف مجلدة مؤيدة من العهد القديم مخلدة، وفيها بالخطوط المنسـوبة ما اختطفته الأيدى واقتطفه التعدى، ونقل منها ثمانية أحمال إلى الشام[3].

---

(١) المقريزى: نفس المصدر، جـ ١ ص ٤٠٨.

(٢) المقريزى: نفس المصدر. جـ ١ ص ٤٠٨.

(٣) الفتح بن على البندارى. سنا البرق الشامى ص ٥٩.

ويذكـر المقريزى: إن كتب دار العلم بالقاهـرة نهبت وتوزعت بين تجار الكتب، سوى ما صار إلى عماد الدولة أبى الفضل بن المحترق بالإسكندرية ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب، وسوى ما ظفرت به قبيلة لواته فى عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨م، هذا بالإضافة إلى ما صار إليه بالابتياع والغصب، بالإضافة إلى ما غرق وما أتلف وما أحرق، وما بقى منها صار تلالا غطته الرمال ظلت معروفة بتلال الكتب إلى أيام المقريزى[1].

ويخبرنا ابن الطوير أن خزانة الكتب كانت فى أحد مجالس المارستان العتيق[2]، وكانت تحتـوى على عدة رفوف مقطعة بحواجز وكل حاجز مقفل بمفصلات وقفل، وفيهـا مـن أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسـير من المجـردات. فمنها كتـب الفقه على سـائر المذاهب والنحو واللغـة وكتب الحديث والتواريخ وسـير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ، ومنها النواقـص التى ما تمت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة فى مكان فوقها، وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره[3].

ويضيف ابن الطوير: أنه تولى بيعها فى أيام الملك الناصر صلاح الدين بن يوسـف ابن صورة ويحدثنا ابن أبى طى فيقول: إن من جملة ما باعوه بعد استيلائهم على القصر خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا، ويقال: إنه لم يكن بدار الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة بالقصر. وكانت عدة الكتب كما يروى ابن طى ألفا وستمائة ألف مجلد[4].

ولما أنشـأ القاضى الفاضل المدرسـة الفاضليـة نقل إليها من كتـب خزانة القصر ما تقدره المصادر بمائة ألف كتاب مجلد بالإضافة إلى ما باعه ابن صورة دلال الكتب فـى مـدة أعوام. ويذكر ابن واصـل أن الكتب فيها كانت تزيد على مائة وعشـرين ألف مجلد.

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ٤٠٩.

(٢) المارسـتان العتيق اتخذه صلاح الدين الأيوبى فى قاعة العزيز بن المعز الفاطمى. القلقشـندى: صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٦٥.

(٣) المقريزى: الخطط. جـ ١ ص ٤٠٩.

(٤) المقريزى: الخطط. جـ ١ ص ٤٠٦.

وكانت المساجد الإسلامية تلحق بها خزائن للكتب، من ذلك خزانة الكتب الجليلة الملحقة بالجامع الذى أنشأه الحاكم بأمر الله المعروف بالجامع الأنور، وكان ذلك في عام ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م.

ولم يكن ذلك وقفا على مسجد الحاكم أو على المساجد الفاطمية وإنما كانت المكتبات الضخمة تلحق بالمساجد، وذلك استكمالا لرسالة المسجد الفكرية والثقافية والتعليمية، فقد أوقفت الكتب على الجامع الأزهر وغيره من المساجد.

وفى بغداد كانت خزانة كتب الحكمة من أثرى وأعظم خزائن الكتب فى ذلك الوقت، وكانت تضم مكتبة جليلة، صنفت كتبها واختير لها المترجمون المشهورون ومنهم يوحنا بن ماسويه وابن البطريق.

ويمكن القول: إن مكتبة الحكمة تعد أول مكتبة عامة فى الإسلام، وقد سجل كثير من المؤرخين اهتمام المسلمين بالكتب وتساوى فى ذلك العلماء وعامة الناس، كما أخبرونا أن كثيرا من رجال العلم قد أوقفوا بيوتهم ومكتباتهم للعلم وتلامذته.

كما كانت المكتبات تلحق بالمدارس التى بدأ إنشاؤها فى العصر الأيوبى بصفة ملحوظة، ثم استمر ذلك خلال عصرى المماليك البحرية والمماليك الجراكسة.

ومن أهم هذه المكتبات تلك التى أنشئت فى عصر الملك الظاهر بيبرس وهى المكتبة الظاهرية، وقد ألحقت بالمدرسة الظاهرية التى أقامها السلطان والتى انتهى العمل فى بنائها عام ٦٦٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وقد وصف المقريزى تلك المكتبة بقوله: «وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم»[1].

ولما أنشأ السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى المدرسة المنصورية ورتب فيها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، أقام القبة المنصورية تجاه مدرسته، وقد رتبت فيها دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة وهى التى تعرف بدروس وقف الصالح. ويذكر المقريزى أن بهذه القبة خزانة كتب جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم المختلفة مما وقفه الملك المنصور وغيره، ويضيف: إن معظم تلك الكتب ذهبت وتفرقت فى أيدى الناس[2].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢، ص ٣٧٩.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٣٨٠.

وفى عام ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م أنشأ الوزير الصاحبى بهاء الدين على بن محمد بن سليم ابن حنا بزقاق القناديل قرب مسجد عمرو بن العاص المدرسة الصاحبية البهائية.

وكان الصاحب بهاء الدين قد بدأ حياته العملية فى كتابة الدواوين فاستوزره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى وفوض إليه أمور الدولة، وكان بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة[1].

ويذكر المقريزى فى خططه عن خزانة كتب بالقاهرة وقع بها حريق فى عام ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م فتلف ما بها من الكتب فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شىء كثير جدًا كان من ذخائر الملوك فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقا محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها وأخذوها بأبخس الأثمان.

ويبدو أن الحاق المكتبات بالمنشآت الدينية أصبح تقليدا معمولا به فى عصر المماليك، فحين أنشئت المدرسة الحجازية التى أنشأتها السيدة خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير بكتمر الحجازى جعلت بمكتبتها خزانة للكتب.

وحين أقام الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى نائب السلطنة بديار مصر مدرسته التى اكتمل بناؤها فى عام ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م جعل فيها خزانة كتب وجعل عليها وقفا ببلاد الشام، وقد استمرت هذه الخزانة حتى تحدث عنها المقريزى.

كما احتوت المدرسة السابقية التى بناها الطواشى الأمير سابق الدين مثقال مقدم المماليك السلطانية الأشرفية على خزانة كتب[2].

كذلك احتوت المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار عام ٧٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م على خزانة للكتب، وصفها المقريزى بأنه لا يعرف على أيامه فى مصر والشام مثلها، ويبدو أنهم قد نظموا استعارة الكتب فيها، فلا يخرج منها كتاب إلا إذا وجدت منه نسخة أخرى بها، وقد ضمت تلك الخزانة كتبا نفيسة فى علوم الإسلام وفنونه.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢، ص ٣٧١.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٤.

ولما أنشأ الأمير سيف الدين الجاى مدرسته عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م جعل بها أيضًا خزانة للكتب تخدم دروس الفقه الشافعى والفقه الحنفى.

ومـن الملاحظ أن معظم المدارس التى أنشـئت فى العصـر المملوكى كانت تحتوى على نفائس الكتب، فقد أورد المقريزى أن مدرسـة الأمير جمال الدين الأستادار التى أقيمت عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م كان بها من المصاحف والكتب فى الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة، كان قد اشـتراها من الملك المنصور حاجى بن الأشـرف بمبلغ ستمائة دينار لكن المقريزى يقدر ثمنها بأضعاف ذلك، هذا بالإضافة إلى عشرة أحمال من الكتب النفيسـة كانت وقفا على مدرسـة الملك الأشرف، لكن الأمير جمال الدين نقلها إلى مدرسته.

وقـد قام على إدارة تلك المكتبات موظفون أكفاء، هم أمناء تلك المكتبات وقد قاموا بدور هام فى الحفاظ على ذلك التراث النفيس لتلك المكتبات.